الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٤٧ — ٢٧ ابريل سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 ^me^ Année, No. 147.

Lundi - 27 - 4 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٤٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ صفر سنة ١٣٥٥ — ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العـــــدد

ترجمة معانى القرآن

رأى صاحب السعادة الأستاذ محمد على علوبه باشا وزير المعارف فى رحلته إلى الشرق الأقصى قوماً من اليابان ينظرون فى الأديان ليختاروا من بينها طريقهم إلى الله، وهم لذلك يتلمسون الوسائل لفهم القرآن فلا يجدون إلا ما كتب المستشرقون والمبشرون وأولو العِلاّت من الجهل والغرض. وكل ما فى أيديهم من ذلك ترجمتان: ترجمة أوربية لم تصدر عن معرفة، وترجمة (أحمدية) لم تصدر عن عقيدة؛ فالأولى تشويه من زور العلم، والأخرى تمويه من خداع السياسة. والدعوة الدينية اليوم فضلاً عن آثارها الروحية وسيلة من وسائل الاستعمار فى الأمم الضعيفة، ونوع من أنواع التحالف فى الأمم القوية

رأى الأستاذ ذلك وسمع أمثال ذلك فكان من أمانيّه أن تصدر عن مصر كنانةِ الله وموطن الأزهر ومعقل العربية، ترجمة رسمية لمعانى القرآن تكون فى الترجمات كما كان مصحف عثمان فى المصاحف. فلما تولى وزارة المعارف كان من أول ما أمضى النية عليه أن طلب إلى مجلس الوزراء «ترجمة معانى القرآن ترجمة رسمية

بحسب ترتيب سوره وآياته ، وبأسلوب موجز واضح يمكّن المترجم من نقله إلى اللغة الأجنبية بالتدقيق الواجب توخيه فى ترجمة رسمية ؛ على أن يبدأ بترجمة القرآن إلى اللغة الانجليزية بمعرفة لجنة أحد عنصريها جماعة من المستشرقين أو غيرهم من الأجانب ، يراجع عليها كاتبان أحدهما مصرى والآخر انجليزى ، يراجعان الترجمة مراجعة نهائية » . وجعل الغرض لهذه الترجمة : « نشر هداية الاسلام بين الأمم التى لا تتكلم العربية ، والقضاء على الأثر السيئ الذى أحدثته الترجمة الخاطئة » . فعرض هذا الأمر صاحبُ الدولة رئيس الحكومة على صاحب الفضيلة رئيس الأزهر ، فاستفتى فيه جماعة كبار العلماء فأفتوا بجوازه ، وعلى ذلك أقره مجلس الوزراء وانقطع القول فيه

* * *

ما كان لنا إذن بعد أن أفتى كبار العلماء وأقر مجلس الوزراء أن نتكلم فيما فرغ الناس منه وتبين الحق فيه ، ولكن « الرسالة » من واجبها أن تلاحظ ومن حقها أن تسجل . والجدل الذى قام على هذا المشروع المفهوم بالضرورة ، بين من أيّد وبين من فنّد ، إنما دل على مغمزين فى بعض رجال الدين لا يتجدد بهما حبل الاسلام ولا تبلغ عليهما رسالة الأزهر . دل على أن فى العلماء من لا يزالون يعتقدون أن من سنة الدين إلغاء العقل بالغاء الرأى . فهم فيما يوردون وفيما يصدرون عبيدٌ للنقل ، لا يفتون إلا بقول قيل ، ولا يحكمون إلا بنص كتب ، وقد لا يكون من الفروق بينهم وبين صاحب هذا القول أو كاتب هذا النص إلا أنه سبقهم إلى الوجود بقرن أو أكثر !

صفّحوا أوراق الأسفار الضخمة لعلهم يقعون على نص فقهى يحظر أو يبيح ترجمة المعانى القرآنية إلى اللغة الانكليزية ، فلما أعياهم المحال بالطبع تقارعوا بالنصوص الحمّالة ، وتراشقوا بالنقول المبهمة ، وفاتهم حين فاتوا الاجتهاد أن دعوة الاسلام عامة ، ومن مقتضيات هذا العموم أن يترجم كتابها إلى كل لغة ، وأن الداعى الأعظم (ص) الذى كان يجيب كل وفد بلحنه ، ويخاطب كل إنسان على قدر عقله ، ويهوّن على الفارسى فيكلمه ببعض لسانه ، ويسهّل على قارئ القرآن بأن يقرأه بلهجته ، ويوافق سلمان على ترجمته الفاتحة لقومه ، لو نسأ الله فى أجله حتى تُفتح الفرس وتُغلب الروم لأمر فى أغلب الظن أن ينقل كلام الله إلى كلام الناس ليتصلوا به من غير حجاب ، ويتفقهوا فيه من غير وساطة

إن فى جعل بعضهم تعلم العربية شرطاً فى فهم القرآن واعتناق الاسلام صداً عن سبيل الله وإبطالاً لدعوته . وإن إغفال الترجمة الاسلامية لآيات الله لم يحمل الفرس والترك والهنود على أن يتعربوا ، وإنما ظلوا إلى اليوم يكابدون اختلاق الدعاة وتضليل الجهلة ، وما تعرب منهم من تعرب إلا ابتغاء الرزق أو الجاه أو العلم فى دولة العرب . وعدم الترجمة فى مصر لم يحل دون وجودها فى غير مصر ؛ فان الناس فى الشرق والغرب يقرأون القرآن فى أكثر اللغات بأسلوب مفكك وبيان قاصر ، وواجب العلماء أن يغيروا هذا المنكر بالمحو وهو محال ، أو بالتصحيح وهو ممكن . وليس فى ترجمة معانى التنزيل استحالة ما أمكنت القدرة . والقول بأن المسلمين ما برحوا عاجزين عن فهم القرآن قول بأن الاسلام يقوم على أساس غير واضح . ولعل ترجمة المفهوم من لفظ القرآن أسلم من ترجمة المراد من معناه ؛ فان الأولى تفسير لغوى للنص ، والثانية تقييد رسمى للرأى . وفى ذلك وشبهه مجال لعقل الفقيه اذا خلص من قيود التقليد لحظة

* * *

كذلك دل هذا الجدل على أن فى العلماء من يلبسون الدين بالهوى ابتغاء لعرض الدنيا أو استشفاء من مرض القلب ، فقد تحدث الناس عن رجلين معروفين بمرونة الرأى قاما يحاربان المشروع بنية مدخولة ، حتى بلغ الأمر بأحدهما أن أهاب بدافعى الضرائب أن يحولوا بين الحكومة وبين الانفاق على هذا العمل الباطل ! !

يا ورثة الأنبياء فيم ورثتموهم ولم يتركوا ضياعا ولا قصورا ولا مراكب ؟ ؟ إنكم ورثتموهم فى الدعوة إلى الله فلا تبطلوها ، وفى تنفيذ الشريعة فلا تعطلوها ، وفى نشر الفضيلة فلا تطووها طى المتاع الكاسد

لقد شعر المصلحون بأن الدين جوهر كل إصلاح ، فساعدوهم على كشف الطريق بنور الحق ، وبلوغ الغاية بهدى الله ، وإلا فليس على الدين مسيطر ، ولا على الناس لله وكيل !

الربيـــع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

خرجتُ أشهدُ الطبيعةَ كيف تُصبح كالمعشوق الجميل، لا يقدِّم لعاشقه إلا أسبابَ حبه!

وكيف تكون كالحبيب، يزيد في الجسم حاسةَ لمس المعاني الجميلة!

وكنت كالقلب المهجور الحزين، وجد السماء والأرض، ولم يجد فيهما سماءه وأرضه

ألا كم من آلاف السنين وآلافها قد مضت منذ أخرج آدم من الجنة!

ومع ذلك فالتاريخ يعيد نفسه في القلب؛ لا يحزن هذا القلب إلا شعر كأنه طُرد من الجنة لساعته

* * *

يقف الشاعر بإزاء جمال الطبيعة فلا يملك إلا أن يتدفَّق ويهتزَّ ويطرب

لأن السرّ الذي انبثق هنا في الأرض، يريد أن ينبثق هناك في النفس

والشاعرُ نبي هذه الديانة الرقيقة التي من شريعتها إصلاحُ الناس بالجمال والخير

وكلُ حُسن يلتمس النظرةَ الحيةَ التي تراه جميلاً لتعطيه معناه

وبهذا تقف الطبيعة محتفلة أمام الشاعر، كوقوف المرأة الحسناء أمام المصور

* * *

لاحت لي الأزهارُ كأنها ألفاظُ حب رقيقة مُتَنَشّاة باستعارات ومجازات

والنسيمُ حولها كثوب الحسناء على الحسناء، فيه تعبيرٌ من لابِسَتِه

وكل زهرة كابتسامة تحتها أسرارٌ وأسرارٌ من معاني القلب المعقَّدة

أهي لغةُ الضوء الملوَّن من الشمس ذاتِ الألوان السبعة؟

أم لغةُ الضوء الملوَّن من الخد، والشفة، والصدر، والنحر والديباج والحلي؟

* * *

وماذا يفهم العشاقُ من رموز الطبيعة في هذه الأزاهر الجميلة؟

أتشير لهم بالزهر إلى أن عمر اللذة قصير، كأنها تقول: على مقدار هذا؟

أتعلمهم أن الفرق بين جميل وجميل كالفرق بين اللون واللون وبين الرائحة والرائحة؟

أتناجيهم بأن أيام الحب صُوَرُ أيام لا حقائق أيام؟

أم تقول الطبيعة: إن كل هذا لأنك أيتها الحشرات لا تنخدعين إلا بكل هذا (١)....؟

* * *

في الربيع تظهر ألوانُ الأرض على الأرض، وتظهر ألوان النفس على النفس

ويصنع الماءُ صُنعَه في الطبيعة فتُخرج تهاويلَ النبات، ويصنع الدم صنعه فيخرج تهاويلَ الأحلام

ويكون الهواءُ كأنه من شفافٍ متحابّة يتنفس بعضُها على بعض

ويعود كل شيء يلتمع لأن الحياة كلَّها ينبض فيها عرقُ النور

ويرجع كل حي يغني لأن الحب يريد أن يرفع صوته

* * *

وفي الربيع لا يضيءُ النورُ في الأعين وحدها، ولكن في القلوب أيضاً

ولا ينفذُ الهواءُ إلى الصدور فقط ولكن إلى عواطفها كذلك

ويكون للشمس حرارتان إحداهما في الدم

ويطغى فيضانُ الجمال كأنما يراد من الربيع تجربةُ منظر من مناظر الجنة في الأرض

والحيوان الأعجم نفسُه تكون له لفتَاتٌ عقلية فيها إدراكُ فلسفة السرور والمرح

* * *

(١) ثبت أن ألوان الأزهار وعطرها وما في ظاهرها وباطنها كل ذلك لاجتذاب الحشرات إليها كي تنقل اللقاح من زهرة إلى زهرة

وكانت الشمسُ فى الشتاء كأنها صورةٌ معلقة فى السحاب
وكان النهارُ كأنه يضيءُ بالقمر لا بالشمس
وكان الهواءُ مع المطر كأنه مطرٌ غير سائل
وكانت الحياة تضع فى أشياءَ كثيرة معنى عبوس الجوّ
فلما جاء الربيع كان فرحُ جميع الأحياء بالشمس كفرح الأطفال رجعت أمهم من السفر

* * *

وينظر الشباب فتظهر له الأرض شابة
ويشعر أنه فى معانى الذات أكثر مما هو فى معانى العالم
وتمتلىء له الدنيا بالأزهار، ومعانى الأزهار، ووحى الأزهار
وتخرج له أشعةُ الشمس ربيعاً وأشعةُ قلبه ربيعاً آخر
ولا تنسى الحياةُ عجائزها، فربيعُهم ضوءُ الشمس . . .

* * *

ما أعجب سر الحياة ! كل شجرة فى الربيع جمال هندسى مستقل
ومهما قطعت منها وغيرت من شكلها أبرزتها الحياةُ فى جمال هندسى جديد كأنك أصلحتها
ولو لم يبق منها إلا جذر حىّ أسرعت الحياة فجعلت له شكلا من غصون وأوراق
الحياة الحياة . إذا أنت لم تُفسدها جاءتك دائماً هداياها
وإذا آمنت لم تعد بمقدار نفسك ولكن بمقدار القوة التى أنت بها مؤمن

* * *

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها »
وانظر كيف يخلق فى الطبيعة هذه المعانى التى تبهج كل حى، بالطريقة التى يفهمها كل حى
وانظر كيف يجعل فى الأرض معنى السرور، وفى الجو معنى السعادة
وانظر إلى الحشرة الصغيرة كيف تؤمن بالحياة التى تملأها وتطمئن ؟
انظر انظر ! أليس كل ذلك رداً على اليأس بكلمة : لا

طنطا — مصطفى صادق الرافعى

الاسلام كعامل فى المدنية

[بقية ما نشر فى العـدد الماضى]

للأستاذ أحمد أمين

والمسألة الثانية هى « الثقافة الاسلامية » وأثرها فى المدنية

وأريد أن أكرر هنا ما أشرت اليه من أن الثقافة الاسلامية كانت أثراً من آثار العقيدة الاسلامية التى ألمت بها . فالقرآن رفع مستوى العقل الى درجة يستطيع فيها التفكير الصحيح بما حارب من خرافات وأوهام، وعبادة أصنام، وبما حث على النظر فى الكون ومراقبة تغيراته، واختلاف مظاهره، ودوام حركاته، وبتوجيه العقل الى أن وراء كل المظاهر المختلفة وحدة، فالناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم يرجعون الى أصل واحد هو آدم وحواء، والبحار والأنهار المختلفة كلها ترجع الى ما أنزل من السماء من ماء، والعالم كله يرجع الى وحدة الخالق « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . فهذه الوحدة فى العالم تحمل على التفكير الصحيح والثقافة العميقة والنظر الفلسفى الروحى . فالقرآن من ناحية فك قيود العقل، وهذا هو العامل السلبى ؛ ومن ناحية أخرى أخذ بيده ليشرف على العالم من مرقب عال، وهذا هو العامل الايجابى

من أجل هذا كانت الثقافة الاسلاميـة نتيجة العقيدة الاسلامية لا نتيجة شىء آخر، فان هى اتجهت الى الاستعانة بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية والهندية، فلأن الدين حملها على ذلك وطلب منها أن تتطلب العلم حيث كان ومن أى كائن كان

وقد بذر الاسلام فى نفوس أصحابه بذوراً تأصلت فيهم فكانوا إذا اقتبسوا من الفلسفة اليونانية أو أية ثقافة أخرى لم يكونوا مقلدين تقليدا صرفاً، إنما كانوا دائماً يُعملون العقل فيما نقلوا، ويعملون العقيدة الدينية فيما قرأوا . فاذا نظرنا الى ما كتب الفارابى وابن سينا وابن رشد رأيناهم لم يقفوا موقف التلميذ فحسب، بل نقدوا وزادوا ووفقوا بين الفلسفة والدين وأمدوا كل شىء أخذوه بروح من عندهم، فكان لثقافتهم طابع خاص وشارة تعرف بهـا — حتى هذا المنطق اليونانى الذى دانت له كل الأمم زاد الغزالى فى بعض كتبه فصولاً عن القرآن ؛ وابن تيمية وابن حزم وغيرهما نقدوا منطق اليونان وعدوه منطق شكل لا منطق مادة . وكان

شأنهم فى كل فرع هذا الشأن تقريباً . فدعوى أن المسلمين فى ثقافتهم كانوا حفظة للثقافة اليونانية أكثر منهم مبتكرين لثقافة خاصة دعوى أملاها عدم الدراسة للثقافة الاسلامية دراسة وافية

والحق أن فضلهم على المدنية الحديثة كان من الناحيتين جميعاً : من ناحية حفظهم لثقافة غيرهم من الأمم ولولاهم لضاع كثير منها ، ومن ناحية ما أنشأوا وابتكروا وبثوا من روح فى الثقافات القديمة . وقد بدأ علماء أوروبا يبحثون نواحى تأثير الثقافة الاسلامية فى الثقافة الأوروبية ؛ وكان من آخر ما أظهروا فى هذا الباب كتاب ما خلفه الاسلام Legacy of Islam تناولوا فيه أثر الثقافة الاسلامية فى الجغرافيا والتجارة ، وفى القانون والاجتماع والفن والعمارة وفى الأدب ، وفى التصوف وفى الفلسفة واللاهوت ، وفى العلم والطب ، وفى الهيئة والرياضيات . وهذا البحث وإن كان آخر ما ألفوا فهو أول ما كتشفوا من طريق يشرف على آثار قيمة ضخمة لا تزال تنتظر مكتشفين أبعد مدى ، وأقوى على تحمل مشاق الطريق

ولعلنا لكى نقرب من موضوعنا نسأل هذا السؤال : هل كان العالم يستطيع أن يقف على درجة السلم التى يقف عليها الآن لولم تكن مدنية الاسلام ؟ هل لولم يكن فى الوجود مدنية بغداد ومدنية قرطبة والحروب الصليبية كانت المدنية الحديثة تبلغ ما بلغت الآن ؟ هل كانت النهضة الأوربية الحديثة تحدث فى الزمن الذى حدثت فيه لولم ترتكز على المدنية الاسلامية ؟

هذا سؤال واحد فى أوضاع مختلفة والاجابة عنه يسيرة ، وهى إجابة بالنفى القاطع . ولا يعلم إلا الله كم كانت تتأخر المدنية الحديثة لولم ترتكز على المدنية الاسلامية وتطير من على عاتقها ، فالتتبع لتاريخ المدنيات يرى أنه حلقات يسلم بعضها إلى بعض ، ويستفيد لاحقها بما وصل إليه سابقها . وقد كانت المدنية الاسلامية هى التى فى الذروة قبيل المدنية الحديثة ، ولم يكن يضارع بغداد وقرطبة مدينة أخرى فى العالم فى مدنيتهما وثقافتهما وصناعتهما ، ونظمهما الادارية والحربية . ولتوضيح ذلك ننظر فى أسس المدنية الحديثة ونبين علاقة هذه الأسس بالمدنية الاسلامية

لقد بنيت النهضة الحديثة فى الثقافة على أساسين وهما الشك والتجربة — كانت الثقافة فى القرون الوسطى تعتمد كل الاعتماد على آراء اليونان وتقدس ما قال أفلاطون وأرسطو كل التقديس . فاذا قال أرسطو قولاً فلا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ، وإذا كان الحس يدل على غير ما يقول وجب أن نعتبر الحس خداعاً ، والحقيقة ما قال أرسطو . لقد قال أرسطو إن الجسم إذا كان أثقل كان إلى الأرض أسرع ، ولكن صعد بعضهم من مكان عال ورمى فى وقت واحد حديدتين وزن إحداهما ضعف الأخرى فوصلا إلى الأرض معاً ، ومع هذا قالوا إن الحق ما قال أرسطو ، ويجب أن يؤول الواقع وهكذا . وكانوا يعتمدون كل الاعتماد على القياس المنطقى وحده يؤيدون به المذاهب والآراء ، والقياس المنطقى وحده وسيلة عقيمة لأنه يجعلك تسلم بالمقدمات تسليما أعمى وتعنى فيه بالشكل . فجاءت النهضة الحديثة تشك فى هذه المقدمات العامة وتمتحنها وتجرى التجارب عليها ولا تؤمن بشىء حتى تدل التجارب على صحته ، وكان هذا دعامة النهضة الحديثة . والحق أن هذه طريقة لم تكن بعيدة عن المسلمين ولا خفيت عليهم ؛ فالتاريخ يحدثنا أن النظّام ألف فى نقد آراء أرسطو ، وأن تلميذه الجاحظ فى كتابه الحيوان يطلع اطلاعاً واسعاً على أقوال أرسطو ثم لا يمنحها هذا التقديس ؛ بل ينقدها نقداً جريئاً ويقول قد جرّبنا قول أرسطو فلم نجده صحيحاً . ويقول : « إن قوله هذا غريب » ، و « هو قول لا يجيزه العقل » إلى كثير من أمثال ذلك ، وربما فضّل على قوله قولاً آخر قاله عربى جاهلى فى بيت من الشعر ، لأنه أقرب إلى العقل . فهو بهذا قد جعل عقله حكماً على أرسطو ، على حين أن فلاسفة القرون الوسطى فى أوروبا جعلوا أرسطو حكما على العقل ، والبيرونى يحكم عقله فى الرياضيات ، ويقارن بين نظريات اليونان ونظريات الهند ، ويفضل هذه حيناً وهذه حيناً فى كتابه الآثار الباقية ، وحيناً لا يقبل هذه ولا تلك ويعتمد على عقله الصرف ، ويقف الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » الموقف الذى وقفه بعدُ ديكارت فيقول : « إنه رأى صبيان النصارى ينشأون على النصرانية ، وصبيان اليهود على اليهودية ، وصبيان المسلمين على الاسلام ، وأنه لم يقنع بهذا الدين التقليدى التلقينى ، وطلب أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين ، وقال إنه بدأ بالشك فى كل ذلك حتى يقوم البرهان على صحته ، ولم يسمح لنفسه باعتقاد حتى يتأكد من صحته » وقال : « كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ،

فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني » ، وابن خلدون نظر إلى المجتمع الانسانى هذا النظر الحر الطليق فاستفاد مما قال أرسطو وغيره ولكنه لم يتقيد به ، ونظر فى مجتمعات لم يصل إليها علم أرسطو وهى القبائل العربية والدول الاسلامية ، واستنتج من ذلك كله نظرياته التى كانت ولا تزال محل تقدير علماء الاجتماع والتاريخ من الأوروبيين وإعجابهم

وعلى الجملة فهذه الأسس التى بنيت عليها النهضة الحديثة فى أوروبا من تحرير العقل من قيود الأوهام ، ومن عبادة العظماء أمثال أرسطو ، ومن وضع القوانين بعد الملاحظة والتجربة ، وبعد الشك فيما اتخذه الأقدمون قضايا مسلمة ، كله كان منبثاً فى الثقافة الاسلامية فى عصورها الزاهيــة . وكل ما فى الأمر أن الذين بنوا على هذه الأسس القيمة هم الأوروبيون لا المسلمون ، وأن من سوء حظ المسلمين أن وضعت فى سبيلهم عقبات ليس منشؤها دينهم حالت بينهم وبين أن يتموا ما بدأوا ، وأن يشيدوا فوق ما أسسوا . ولكن من الحق أنا إذا أردنا أن نقوّم بناء لا نكون سطحيين فنقوم ظاهره ، ولا نقوم باطنه ؛ ونقوم أعـلاه ، ولا نقوم أساسه

ووجه آخر بجانب هذا ، وهو أن ثقافة المسلمين لم تكن جميعها متجهة اتجاه الفلسفة اليونانية والعلوم اليونانية ؛ فقد كانت لهم مناح فى الثقافة خاصّة بهم لم يعتمدوا فيها على غيرهم إلاّ اعتماداً ضعيفاً غير مباشر ؛ فما أنشأوا من علوم لغتهم كالنحو والصرف والبلاغة وأدبهم الذى رقوا به أدب جاهليتهم وساروا به على منهج خاص بهم ، لا على المنهج اليونانى ، ولا على المنهج الفارسى ؛ والعلوم الغزيرة التى أنشأوها حول دينهم من تفسير للقرآن والحديث ، ومن فقه قابلوا به قضاياهم ونظامهم وحياتهم الاجتماعية الخاصة ، وما أسسوا له من « أصول الفقه » الذى لم يجروا فيه على منوال سبق — كل هذه وأمثالها كانت مظهراً من مظاهر الاختراع العقلى للمسلمين ، وكل هذه كانت عوامل فى بناء المدنية الاسلامية التى بنيت عليها المدنية الحديثة

وقد حفظ لنا التاريخ بعض الصلات التى ربطت بين المدنية الاسلامية والمدنية الأوروبية ، وأبان لنا كيف استمدت الثانية من الأولى ، وكشف لنا عن بعض الجداول التى كانت تتسرّب من المدن الاسلامية تصب فى المدن الأوروبية ، وإن كان بعضها لم يزل مطموراً إلى اليوم ولم يستكشف بعد

فقد اتصل الأوربيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالاً وثيقاً ، واتخذ علماؤهم فلاسفة المسلمين أساتذة يتعلمون منهم ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق لنقل أهم المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى أن كثيرا مما بقى من مؤلفات ابن رشد حفظت الى الآن باللغة اللاتينية ولا نجد أصلها بالعربية ، وكان من أشهر من قام بهذه الحركة « ريموند » Raymond الذى كان مطراناً لطليطلة من سنة ١١٣٠ — سنة ١١٥٠ ، فقد أسس جمعية لنقل أهم الكتب الفلسفية والعلمية العربية الى اللغة اللاتينية ، فنقلوا من العربية أهم كتب أرسطو وما علقه عليها العرب من شروح ، كما نقلوا أهم كتب الفارابى وابن سينا ، وكان من أثر هذه الجمعية أن رأينا منطق أرسطو المترجم من العربية الى اللاتينية يقرأ فى باريس بعد ثلاثين سـنة من عمل هذه الجمعية . وقد مرت حركة استفادة الأوربيين من الثقافة اليونانية فى ثلاثة أدوار ، الدور الأول : نقل الفلسفة اليونانية والكتب العلمية من العربية الى اللاتينية ، والدور الثانى : النقل من اليونانية مباشرة بعد سقوط القسطنطينية . والثالث : نقل الشروح العربية الى اللاتينية

وجاء فردريك الثانى سنة ١٢١٥ ، واتصل بالمسلمين اتصالاً وثيقاً فى صقلية وفى الشام فى حروبه الصليبية ، واقتبس كثيراً من آرائهم وعاداتهم وعقائدهم ، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان يعجب بفلاسفة المسلمين ، وكان يعرف اللغة العربية ويستطيع أن يقرأ بها الكتب الفلسفية فى مصادرها الأصلية . وأنشأ سنة ١٢٢٤ مجمعاً فى نابلى لنقل العلوم العربية والفلسفة العربية الى اللاتينية والعبرية لنشرها فى أوربا . وبفضل فردريك ذهب « ميكائيل سكوت » الى طليطلة وترجم شروح ابن رشد على أرسطو ، وقبل ذلك كانت قد نقلت الى اللاتينية جمهرة من كتب ابن سينا واستعملت فى باريس حول سنة ١٢٠٠ م

وفى القرن الثالث عشر كانت كل كتب ابن رشد تقريباً قد ترجمت الى اللاتينية ماعدا كتباً قليلة ، منها كتاب تهافت التهافت الذى رد به على تهافت الفلاسفة للغزالى ، فقد ترجمت فى القرن الرابع عشر

وكان أهم مركز لتعاليم ابن رشـد فى جامعة بولونيا وجامعة

بادوا Padua فى ايطاليا ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى ايطاليا الشمالية الشرقية الى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب ابن سينا فى الطب سائدة الى ما بعد هذا العصر

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، فروجر بيكون الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه أخذ ثقافته العلمية من الأندلس ، ودرس فلسفة ابن رشد ، والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومساير لكتاب ابن الهيثم فى هذا الموضوع نفسه

وطالما ارتفعت شكوى رجال الدين فى الأندلس من أن المسيحيين يدرسون علم العرب المسلمين ، وعابوا مطران أشبيلية لأنه يدرس فى جد فلسفة الكافرين ، يعنون المسلمين

وعلى كل حال فجملة الأمر فى مدنية المسلمين كما لخصها الأستاذ لكى Lecky خير تلخيص إذ قال :

« لم تبدأ النهضة الفكرية فى أوربا إلا بعد أن انتقل التعليم من الأديرة الى الجامعات ، وإلا بعد أن حطمت العلوم الاسلامية ، والأفكار اليونانيــة ، والاستقلال الصناعى ، سلطان الكنيسة »

***

هذا هو موقف المسلمين أمس من المدنية ، ولا بد أن نلقى نظرة على موقفهم اليوم من المدنية الحديثة . ومما يؤسف له حقاً أن نقول إن المسلمين لا يشتركون اليوم فى بناء صرح المدنية اشتراكا كبيرا ، لأن حديثهم هو تقليد للمدنية الحديثة ، وقديمهم هو مدنية القرون الوسطى ، فهم فى الصناعات والمخترعات ونظم الحكومات والادارات ، وفى كتبهم التى تؤلف فى العلوم الحديثة من جغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وما اليهما ، ونظام مدارسهم الحديثة ومحاكمهم وقوانينهم ؛ كل هذا يقلدون فيه المدنية الغربية . وكلما زاد التقليد فيها عدت أقرب الى الكمال ؛ وقديمهم من مثل دراسات علومهم كالنحو والصرف والفلسفة الاسلامية ، ومن مثل قضائهم فى المحاكم الشرعية ، ومن مثل مدارسهم الدينية ، ونحو ذلك ، كلها على نمط مدنية القرون الوسطى . فهم — فى ظاهر الأمر — لا يضعون أحجاراً كبيرة فى بناء المدنية الحديثة ، ولا يلونونها بلون خاص . ولكن هل الذنب فى ذلك ذنب الاسـلام والمسلمين ؟ إذا عرضت نفسك لتبنى فمنعك صاحب البناء بالقوة فالذنب ذنب من مَنع لا من مُنع ، وهكذا الشأن فى موقف المسلمين . لقد سبقهم الغربيون باستخدام العلم فى قوة تسلحهم الى أقصى حد يمكن فيه استخدام العلم ، فوجهوا هذه القوى الهائلة الى الشرق ، ولم يكن قد صحا بعدُ من سباته الذى سببه ما فسد من عقيدته ، وما فسد من سياسته ، وما فسد من شؤونه الاجتماعية ، فسلط عليه الغرب كل قوته ، فانتبه مذعورا ؛ ونظر اليه الغرب نظرة استغلال ، فساعده على كل ما يفيد الاستغلال ، ومنعه عن عمل كل شئ يفيد الاستقلال ، فهو اذا أراد أن يتثقف كما يشاء ، أو يرقى شؤونه الاجتماعية كما يشاء ، أو أن يحكم نفسه كما يشاء ، أو أن يرقى أخلاقه كما يشاء ، منعه الغرب من ذلك حرصا على فائدته فى هذا الاستغلال ، والشرق لا يستطيع أن يقاوم إلا بالقوة ، والقوة محرمة عليه . فهل بعد ذلك هو الذى يتحمل تبعة عدم اشتراكه فى البناء

إنى لأرجو أن الزمن ورقى الأفكار السياسية التى تخطو فى هذه الأيام خطوات سريعة تجعل الغربى ينظر الى الشرق نظرة تعاون ، فيدرك أن طريقة الاستغلال ليست أصلح الطرق حتى من الناحية الاقتصادية ، وأن رقى الشرق والسماح له بالبناء يزيد فى صرح المدنية ويرفع بناءها ، ويسرع فى علو شأنها . وكما تبين للناس أن نظام الأقطاع وتسخير الملك للعبيد لم يكن فى مصلحة الملاك ولا العبيد ، فحطموا هذا النظام من أساسه ، وأسسوه من جديد على تحرير العبيــد وتعاون الملوك والمستأجرين ، وأرباب الأموال والعمال ، فكذلك سيكون الشأن مع الحاكمين والمحكومين يتعاونون ولا يتقاتلون ، ويتفاهمون ولا يتنازعون ، ويتحاكمون إلى الرأى والعقــل لا إلى القوة والسلاح . وأرجو ألا يكون ذلك بعيداً

على أن من العدل أن نقول إن التبعة فى ذلك كله لا تقع على الغربيين وحدهم ، فان هناك عوامل فى المسلمين أنفسهم جعلتهم فى هذا الموقف الحرج . فهناك علماء جامدون ضيقوا العقل ، وقفوا موقفاً مزرياً فى تاريخ المسلمين ، وعاقوا رقيهم وتقدمهم ، فكان كلما حاول الاصلاح محاول ثاروا عليه باسم الدين ، إن أراد إصلاح المحاكم ثاروا عليه ورموه بالمروق ، وإن أراد تنظيم الادارة الحكومية قالوا لا عهد لنا بهذا ، ويجب أن نتتبع آباءنا وإنا على آثارهم مقتدون .

وإن أراد تعليم المرأة قالوا ما بهذا أتى الدين ! وهكذا كانوا حجر عثرة فى سبيل كل مصلح حتى أعظم الخطب ، واشتد الكرب ، وأولو الأمر فى المسلمين إذ ذاك لم يكن يهمهم إلا شهواتهم ونفخفختهم الكاذبة ، ومظاهرهم الخادعة . أما الاتجاه الصحيح إلى ترقية رعيتهم وتثقيفهم ، وتنوير أذهانهم ، ونشر العدل بينهم فكانوا قلما يأبهون له . فهؤلاء وأولئك كانوا السبب فى أن يقف المسلمون هذا الموقف الذى شكونا منه من قبل

ومع هذا فتنبه المسلمين اليوم ، وسير حركات الاصلاح بينهم سيراً حثيثاً ، يدعونا أن نؤمل قرب اليوم الذى يتبوأون فيه مكانتهم اللائقة بهم . فاذا قارنت هذه النهضة الداخلية فى رقى الفكر السياسى عند الغربيين ، وتعديل نظرتهم نحو المسلمين كان من وراء ذلك كله نهضة جدية يبنى فيها المسلمون فى المدنية بناء صالحاً مصبوغاً بعقيدتهم وأفكارهم ، فنرى إذ ذاك فلسفة خاصة وثقافة خاصة ، وروحانية خاصة ، قد تلون المدنية الحديثة عامة بلون خاص غير لونها الحالى

أحمد أمين

النهضات القومية العامة

فى أوروبا وفى الشرق

للأستاذ عبد الرزاق أحمد السنهورى

عميد كلية الحقوق ببغداد

المحاضرة الثانية*

الفاشية :

رأينا فى المحاضرة السابقة كيف قامت الفاشية والنازية سداً منيعاً أمام تيار البلشفية الجارف . ونقول فى هذه المحاضرة كلمة عن هاتين الحركتين ؛ وقد كتب الشيء الكثير عنهما ، ونحن لا نحاول الأحاطة بكل ما كتب ، بل نتوخى الايجاز الذى يقتضيه هذا المقام

يمكن أن نصف الفاشية بأنها رد فعل عنيف للحركة الاشتراكية التى قامت فى إيطاليا عقب الحرب الكبرى ، وهددت مرافق الحياة فى هذه البلاد بالشلل والنضوب ، حتى أصبحت إيطاليا فى حالة لا تحسد عليها ، وحتى كادت وحدتها الوطنية تتفكك . فقام مؤسس الفاشية ، وكان اشتراكياً فى مبدإ أمره ، فوفق بين مبدئه الاشتراكى ونزعته الوطنية ، وأسس الحكم الفاشى قائماً على فكرة الوطنية ، معارضاً لفكرة الطبقات . وهكذا انتكصت الاشتراكية فى ايطاليا ، ورجع مبدأ الوطنية للانتصار

فالفاشية ، كنظام من نظم الحكم ، ليست إلا مقاومة عنيفة للبلشفية . وهى ليست مقصورة على ايطاليا ، بل امتدت منها الى غيرها من البلاد ؛ فهى تسمى فى ايطاليا بالفاشية أو الموسولينية ، وتسمى فى ألمانيا بالنازية أو الهتلرية ، وتسمى فى تركيا بالكمالية وهكذا . وهى ، أين تسود ، تقف سداً منيعاً دون تفشى البلشفية .

ولما كانت الفاشية قد نشأت فى أول أمرها وترعرعت فى ايطاليا ، فنحن نبدأ بالفاشية الايطالية ، لننظر كيف نشأت ، ثم نستعرض المبادىء التى قامت عليها ، والوسائل التى تذرعت بها فى العمل ، والطرق التى اتبعتها فى التنظيم

نشأتها :

أما كيف نشأت الفاشية فى ايطاليا ، فلأجل أن نعرف ذلك يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، لنستعرض ايطاليا فى مبدإ الحرب الكبرى ، وهى مترددة هل تدخل الحرب الى جانب ألمانيا أو الى جانب الحلفاء . ثم تدخل الى جانب الحلفاء ، فتكاد تكتسحها الدول الوسطى ، وتعانى من أهوال الحرب ورزاياها ما يكاد ينوء بها . ثم يبسم الحظ للحلفاء ، فينتصرون وتنتصر معهم ايطاليا . ولكنها تخرج من الحرب فى حالة من الفوضى الاقتصادية والاضطراب المادى ، هى شر من الحرب . فالبلشفية قد تفشت فيها ، والعمال أخذوا يثيرون القلاقل والفتن ، والشعب ساخط غاضب على حكومته ، يتهمها بالضعف والعجز ، فهى لم تنل فى مؤتمر فرساي من الأسلاب والغنائم ما يتفق مع الجهود والتضحيات التى اعتقدت ايطاليا أنها بذلتها أثناء الحرب ، ولا ما يتفق بنوع خاص مع طموح ايطاليا الفتاة ومطامعها الاستعمارية . فاذا أضفنا الى هذا كله أن النظم الدستورية والنيابية لم تكن قد تأصلت فى الحكومة الايطالية ، وأن روح الديمقراطية لم تكن قد استقرت فى الشعب الايطالى فى المدة القصيرة التى

* ألقيت فى بهو أمانة العاصمة ببغداد يوم ٨ أبريل سنة ١٩٣٦

مرت عليه منذ استقلاله ، وأن هـذه البلاد لم تنس بعدُ عهد الجمعيات السرية ولا المؤامرات التي تدبر في الخفاء ، واذا عدنا للاشارة مرة أخرى الى ما انتشر من الفوضى والاضطراب في البلاد بسبب تفشي البلشفية ، نستطيع بعد كل ذلك أن نتصور لو أن رجلاً جريئاً مغامراً ، ذا إرادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وطموح بعيد ، يقود طائفة من الفتيان تدفعهم حماسة الشباب ، وحمية الوطنية ، وأحلام المجد والعظمة ، والأيمان العميق بمستقبل الوطن ؛ نستطيع أن نتصور ، لو أن رجلاً بهذا الوصف ، ومن ورائه الشباب المتوقد عزيمة وقوة ، برز الى الميدان ، وتقدم الى شعب من الشعوب ، لينقذه من حالة الفوضى والاضطراب ، ويعيد إليه مجده القديم ، ويسوقه إلى ساحات العظمة والمجد ، فينال حظه من كل ذلك ، بعد أن أنكره عليه حلفاؤه بالأمس ، فان هذا الرجل لابد أن يقابل بالترحيب ، ثم بالاعجاب ، ثم بالتحمس . وأنه لا بد واجد من هذا الشعب جنوداً يبذلون نفوسهم في سبيل تحقيق هذه الغايات الوطنية الشريفة . وقد كان الشعب ، وكان الرجل . أما الشعب فهذه الأمة الايطالية الشابة الفتية ، الحساسة المسرفة في الحساسية ؛ وأما الرجل فهو موسوليني ، بطل الفاشية وزعيمها الأكبر

وقد بدأت الفاشية ، بعد زحف موسوليني على روما وقبضه على ناصية الحكم بالقوة ، حكماً تجريبياً ، ليست له خطة مرسومة ولا مذهب مقرر . وكان موسوليني في مبدإ أمره اشتراكياً متحمساً ، ثم انقلب جندياً باسلاً ، ورجع وطنياً غيوراً . وصار من اعتنق الاشتراكية وآمن بمبادئها ، نقمة الاشتراكية وخصمها الألد . وتقدم موسوليني الى الحكم وليست له خطة مرسومة كما قدمنا ، إلا اذا كانت الرغبة الملحة في الاصلاح وإعادة مجد الوطن يصح أن تسمى خطة . فالفاشية بدأت تجريبية شعارها العمل ، والعمل الايجابي العنيف في سبيل الاصلاح الوطني . لذلك اشتهرت الفاشية بصبغتها العملية ، وباقدام رجالها ، واقتحامهم أشد الأخطار هولاً ، دون تردد ولا هوادة . فالقضية عندهم هي بعث الأمة الايطالية من جديد . أما المبادىء والنظريات فقد كان موسوليني يسخر منها ، ويرى أنها سلاح خطر ، قد يرتد الى صاحبه فيرديه . فالبلشفية قد بدأت إذن عملاً لا مبدأ ، وحركة لا فكرة . ولم يكن لديه منهج مرسوم يريد تحقيقه . ويوم ارتقى موسوليني منصة الحكم لم يكن لديه الا ارادة وعزيمة ، فأكب على العمل بهذه الارادة وهذه العزيمة ، واضعاً نصب عينيه مجد الأمة الايطالية وعظمتها

ثم أخذت الفاشية تمر بمراحل متعاقبة من التجارب العملية زهاء عشر سنوات . تهذبها الأحداث ، وتنضجها الأيام . وتطورها مقتضيات الضرورة ، حتى استنار طريقها ووضحت معالمه . وارتسمت الفاشية مبادىء ينتظمها مذهب معروف مقرر . وصارت نظاماً عالمياً له نظرياته وقواعده . وسرت مبادئها من بلد الى بلد . ودخلت في دور علمي فلسفي ، تقرر نظرية للدولة ، ونظرية لعلاقة الفرد بالمجموع ، ونظرية لأثر العوامل الاقتصادية في الحالة السياسية ، ونظرية لعلاقة المسائل الروحية بالمسائل المادية ، ونظرية للتربية والتعليم . ولكن الفاشية بقيت محتفظة بصبغتها العملية الأولى ، فهي تبدأ بالوقائع تبحثها وتحللها ، ثم تصوغها بعد ذلك نظريات سياسية واقتصادية ، بخلاف البلشفية فانها تبدأ ببسط النظريات ، ثم تطبقها بعد ذلك على الوقائع

ولننظر إلى الفاشية كمبدأ علمي فلسفي ، وكنظام عملي من نظم الحكم القائمة . فالفاشية بهذا الوصف لها مبادىء تقوم عليها ، ووسائل للعمل ، وطرق للتنظيم

مبادئها :

أما المبادىء التي تقوم عليها فتتلخص في عبارة واحدة هي « مجد الوطن وعظمته » . فالفاشية حركة تقوم على القومية ، وتعادي كل نزعة من شأنها أن تكسر حدة الوطنية . أما الجامعات الدولية كالبلشفية فتحاول أن تحقق اتحاد العمال في جميع أنحاء العالم ، وكعصبة الأمم تحاول أن تدمج القوميات في جامعة واحدة ، فالفاشية تعادي بعضها ، وتنظر إلى البعض الآخر نظرة المرتاب ، فالوطن ، والوطن وحده ، هو الذي تخصص له الفاشية جهودها

فهي حركة وطنية تقوم في وجه البلشفية ؛ أى أن الرابطة التي تقوم على فكرة الوطن لا تزال تجاهد في أوروبا جهاد المستميت ، وهي في كفاح عنيف مع الرابطة التي تقوم على فكرة الطبقات

وسائلها في العمل :

وللفاشية وسائل للعمل . وتتلخص هذه الوسائل في قيام أقلية صالحة باعباء الحكم . فهناك هيئتان : الهيئة الحاكمة ،

والهيئة المحكومة . ويجب أن تتضامن هاتان الهيئتان تضامن أعضاء الجسم الواحد . أما المساواة الديمقراطية فلا تعترف بها الفاشية . إذ النـاس فى الواقع من الأمر غير متساوين ، وهم يتفاوتون فى القوة والكفاية والصلاحية ، ولا عبرة بالمساواة النظرية ما دامت المساواة الفعلية غير متحققة . وقد رفع الله الناس درجات بعضهم فوق بعض ، فيجب الاعتراف بهـذه الحقيقة والأذعان لها . وتستخلص الفاشية من ذلك أن فى الأمة أقلية صالحة للحكم ؛ ومعيار الصلاحية الكفاية وتغليب المصلحة العامة والقدرة على تحقيقها . وهذه الأقلية هى التى يجب أن تحكم . وهى لا تستمد سلطانها من انتخاب الهيئة المحكومة لها ، ولا من ثقة هـذه الهيئة بها ، بل تستمده من كفايتها وقدرتها على القيام باعباء الحكم . وترتب الفاشية نتيجة خطيرة على ما تقدم ، فهى تبيح الثورة على الحكومة العاجزة ، إذ المبرر لبقاء الحكومة فى الحكم إنما هو كفايتها ، فاذا انعدمت هذه الكفاية ، انعدم حقها فى البقاء ؛ فاذا بقيت بالرغم من ذلك ، وجب الانتقاض عليها ، ونزعها من كراسيها . وقد طبقت الفاشية هذا المبدأ عملياً ، قبل أن يتقرر مبدأ نظرياً ، عندما زحفت على روما ، وقبضت على ناصية الحكم بالقوة

على أن هذه الأقلية الحاكمة التى تتميز بالكفاية ، تتدرج هى الأخرى فى السلطان حسب درجة كفايتها . فالكفاية هى الكرسى الذى يتركز عليه الحكم . وتعلو طبقة فوق طبقة . وتخضع الطبقة الدنيا للطبقة العليا ، حتى ينتهى الأمر كله إلى زعيم واحد ، تلقى فى يده أزمة الحكم ، وترجع إليه كل الأمور ، فيفرض ارادته على أفراد الهيئة الحاكمة ، كما تفرض الهيئة الحاكمة إرادتها على أفراد الهيئة المحكومة . وبذلك يقوم ركن الدولة على أسس متينة ، وترجع الأمور كلها إلى رأى واحد ثابت لا يضطرب ، ويتوطد سلطان يخضع له الجميع ويذعنون لارادته . فالفاشية ، كما قال بعض الكتاب ، تبدأ بتغليب الجماعة على الفرد ، ولكن الجماعة تندمج فى الأمة ، والأمة تندمج فى الدولة ، والدولة تندمج فى الحكومة ، والحكومة تندمج فى الزعيم

ومن هنا ندرك أن الفاشية هى من أشد ضروب الدكتاتوريات تركيزاً للسلطة ، وأبعـدها عن النظام الديمقراطى ، فالديمقراطية تقوم على سلطان الأمة ، وعلى الحرية والمساواة ما بين الأفراد . أما الفاشية فتنكر سلطان الأمة ، وتقيد من الحرية ، ولا تعترف بالمساواة ما بين الأفراد . ولا يعبأ موسولينى ، وهو قابض على ناصية الحكم ، أوثق به الشعب الايطالى أم لم يثق ، فهو لا يستند إلى هـذه الثقة ، ولا يستمد سلطانه من سلطان الأمة ، وإنما يستمده من كفايته للحكم وقدرته على تحقيق المصلحة العامة . وسواء عليه لو أن الاثنى عشر مليوناً من الناخبين أعطوه أصواتهم أم لم يعطوه شيئاً . وقد صرح السكرتير العام للحزب الفاشى بهذه الحقيقة فى عبارة جارحة ، إذ يقول : « لو أن الاثنى عشر مليوناً الذين قالوا نعم تحولوا إلى أربعة وعشرين مليوناً قالوا لا ، لما غير هذا من الأمر شيئاً ، ولبقى موسولينى فى قصر ڤينيسيا ، ولبقيت ثورة القمصان سائرة فى طريقها . . . ولو قدر أن يصوت أربعـة وعشرون مليوناً ضد الفاشية ، لكان هذا معناه أن جمهور الناخبين قد أصيبوا بالجنون ، وأن البلاد الايطالية قد أصبحت مستشفى لهؤلاء المجانين ، ولكان هذا سبباً أدعى لأن يبقى العقلاء فى أماكنهم »

وتختلف الديمقراطية عن الفاشية أيضاً فى أنها تركز السلطان فى الأمة ، وتقيم الدولة على سلطان الأمة ؛ فالأمة هى التى تنشىء الدولة . أما الفاشية فتذهب الى العكس من ذلك . وعندها أن الدولة هى التى تنشىء الأمة ، وأن الأمة ليس لها أى سلطان ، بل ليس لها وجود قانونى ، والسلطان كله للدولة . وقد كتب موسولينى فى هـذا المعنى فى دائرة المعارف الكبرى الايطالية التى أمر بوضعها ، يقول : « ليست الأمة هى التى تخلق الدولة ، بل الدولة هى التى تخلق الأمة ، وتعطى للشعب الذى يشـعر بوحدته الأدبية ، ارادة فوجوداً قانونياً » . وتقضى المادة الأولى من دستور العمل الفاشى بأن الأمة ، وهى وحدة أدبية وسياسية واقتصادية ، تتحقق فى الدولة

فالفاشية تقوم إذن على تقديس السلطة ، وعبادة الدولة ، أى الهيئة الحاكمة وشعارها فى الحكم : العمل الايجابى . فهى لا تقنع للدولة بموقف سلبى ، يقر الأمور دون أن يسيرها ، بل يجب على الهيئة الحاكمة أن تدفع الأمور دفعاً إيجابياً عنيفاً ، فى غير رفق ولا هوادة . وهنا تظهر نزعة الشباب والفتوة التى تميز الحركة الفاشية ، فقد كان أكثر القائمين بها شباناً عندهم طموح وهمة ، وفيهم اندفاع وتوثب

والفناء فى الدولة والوطن هو الظاهرة البارزة فى الفاشية . ولهـذا الفناء مظهران : مظهر سياسى يتمثل وطنية ، ومظهر اقتصادى يتمثل تعاوناً . أما الوطنية فتتركز فى تربية الفرد تربية فاشية ، أى تربية وطنية ؛ وتغرس فى الطفل حب الوطن ، حتى ينشأ على ذلك ، موفقاً ما بين الحرية والنظام ، فهو حر ليستكمل شخصيته ، وهو خاضع لنظام يكفل التضامن . أما التعاون فيقوم على تنظيم اقتصادى دقيق ، أساسه النقابات ، فالنقابات فى إيطاليا الفاشية منتشرة انتشاراً واسع النطاق ، وسنعود إلى ذلك بعد قليل

(البقية فى العدد القادم) عبد الرزاق أحمد السنهورى

صور من القرن الثامن عشر

٣ ـ جاكومو كازانوفا

جوّاب مجمع ومغامر مرح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

هبط كازانوفا لندن يبحث وراء طالعه ، ويلتمس الوسائل لخوض مغامرات ومشاريع جديدة ، ولكنه ما لبث أن شعر بأن المجتمع الانكليزى الرصين لا يغزى بسهولة ، وأن الأفق لا يتسع لمزاعمه المريبة ، وأن محاولاته الغرامية تلقى مهادا صلبة ؛ وشعر بالأخص بأن تلك الخلال والمؤثرات السحرية التى اجتذبت اليه من قبل عشرات الحسان لم يبق لها قوة لى التأثير والاغراء . وهو يشير فى مذكراته إلى ذلك الفشل فى حزن ومرارة : « لقد سجلت هذا التاريخ — سبتمبر سنة ١٧٦٣ — باعتباره لعنة من لعنات حياتى ، ولقد شعرت من بعده بأن تيار الكهولة يحملنى مع أننى كنت فى الثامنة والثلاثين » . وهكذا اضطر كازانوفا بعد بضعة أشهر ارتكب خلالها كالعادة عدة محاولات وأعمال مريبة ، أن يغادر لندن مثقلا بأعباء الخيبة والفشل

وأم كازانوفا برلين ، واستطاع أن يقابل ملك بروسيا — فردريك الأكبر — ولكنه استقبله ببرود وتحفظ ، ولم يظفر منه بطائل

عندئذ قصد إلى روسيا حيث تروج سوق المغامرة ، وهنالك تعرف بالأمير كارل فون كورلاند ، وهو أمير مرح فاسد السيرة ينغمس فى مجالى اللهو والخلاعة ، ويلتمس اكتساب المال بأى الوسائل ، فتفاهما وتوثقت بينهما عرى الصداقة ، واستطاع كازانوفا أن يجوز بواسطته إلى المجتمعات الرفيعة فى ريغا وبطرسبرج وموسكو ، وأن يستعيد فيها شطراً من حياة السرور والبهجة . ثم ذهب إلى بولونيا ، وهنالك فى وارسو خاض نفس الغمار المرحة المريبة معاً ، ولفت اليه أنظار البلاط والسلطات بمشاريعه فى عالم النساء والمقامرة ، ومزاعمه فى التأثير والشعوذة ، واضطر غير بعيد إلى مغادرة وارسو ؛ فتركها إلى فينا ، ولكنه لم يستطع مكثاً بها ، لأن عين الشرطة كانت ترقبه ؛ فذهب الى باريس كرة أخرى ، ولكن العاصمة الفرنسية كانت تعرفه حق المعرفة ، وترغب عن قبوله وإيوائه ؛ فغادرها إلى اسبانيا ، فلقى فيها نفس الرفض والمطاردة ؛ وكان صيته المشين قد غمر يومئذ جميع العواصم الأوربية ، فلم يبق أمامه سوى الرجوع إلى ايطاليا

فعاد اليها يتجول فيها من مدينة إلى مدينـة ، والنحس يسايره أينما حل ، والفاقة تفت فى عزمه وفى آماله وأمانيه ، وشبح الجوع يزعجه ، ونذير الكهولة يروعه ؛ لقد كان يومئذ فوق الأربعين ، وقد خمدت جذوة اضطرامه ، ولم يبق من ذلك الفتى المرح ، والمغامر الجرىء ، سوى طلل متهدم ؛ يقول لنا كازانوفا فى مذكراته مشيرا إلى ذلك العهد : « لقد فكرت يومئذ ، وربما لأول مرة فى حياتى ، فى أيامى الخالية ، ورثيت مسلكى ، ولعنت الخمسين التى شارفت بلوغها ، والتى قضت على جميع أحلامى ، وحز فى نفسى ألا أرى أمامى سوى بؤس الشيخوخة ، والعطلة والفاقة ، وألا تغذينى سوى شهرة مزرية ، وحسرات عقيمة » . أجل كان كازانوفا يومئذ كهلا ، تغلق فى وجهه جميع الأبواب وترغب عنه النساء ! وكان أشد ما يحز فى نفسه المكلومة أن يرى تلك المخلوقات الساحرة التى اعتاد أن يجذبها بروائه وسحره وذلاقته ، تفر من كهولته الى أحضان الشباب النضر !

ولما بلغ به اليأس مبلغه فكر فى العودة إلى البندقية وطنه ومسقط رأسه ؛ فسعى فى استصدار العفو اللازم ؛ ولم يدخر

وسعاً فى التقرب إلى السلطات والتضرع اليها ، وعاونه على ذلك رسالة كتبها ردا على تاريخ للبندقية ظهر من قبل بالفرنسية بقلم « املو دى لاهوسى » وفيه مطاعن شديدة ضد الجمهورية ونظمها ، وهى مطاعن يفندها كازانوفا فى رسالته بحماسة ؛ وكان لرسالته وقع حسن لدى السلطات ، فاستمعت أخيرا لتضرعه ومنحته جوازا أميناً بالعودة إلى وطنه فى أوائل سبتمبر سنة ٧٧٤

***

ولكنه عاد شيخاً يجرجر أذيال البؤس والخيبة ، ويلفظه المجتمع الرفيع ؛ وكان صديقه وحاميه القديم السيد براجادين قد توفى ، ولم يبق له عون ولا عضد ، فلبث مدى حين يعانى مضض الفاقة ؛ وبعد جهد جهيد عطفت عليه محكمة التحقيق وعينته مخبرا سرياً بمكافآت تتناسب مع عمله وتقاريره ، ثم منحته مرتباً شهرياً قدره خمس عشرة دوقة ، فاطمأن نوعا إلى هذا المركز المتواضع ، واستطاع أن يغشى بعض الحفلات والمسارح ، وكان لا يزال يثير حوله بعض العطف بذكائه وظرفه ، وتعرف عندئذ بامرأة تدعى فرنشيسكا بوشينى ، وعاش معها فى نوع من الهدوء والاستقرار

بيد أنه كان يلعن تلك الحرفة الوضيعة التى ألجئ إلى احترافها ؛ أجل لقد كان كازانوفا جاسوسا زرياً لمحكمة التحقيق التى يمقتها من صميم قلبه ، وكان بحكم عمله مكلفا بالتحرى عن المسائل السياسية والجرائم الأخلاقية والدينية ، التى طالما أمعن فى ارتكابها ؛ وكانت تغمر البندقية يومئذ موجة من الالحاد والانحلال الخلقى ، فكان من سخرية القدر أن يسهر كازانوفا على مراقبة الفساق والملحدين ؛ وكان يمضى تقاريره بامضاء مستعار وهو مع ذلك يضطرم سخطاً لذلك الدرك الأسفل الذى هبط اليه . وفى أواخر سنة ١٧٨١ رأت محكمة التحقيق أن تستغنى عن خدماته وقطعت مرتبه ، فتولاه يأس قاتل ، ورأى شبح الجوع ماثلا أمامه ، ورفع يومئذ إلى محكمة التحقيق ذلك الالتماس المؤثر الذى يدل على ذلاته وحسن بيانه :

« إلى حضرات العظماء الأجلاء سادتى القضاة المحققين :

« أتقدم اليكم ، أنا جاكومو كازانوفا ، وقد غمرتنى الحيرة ، وسحقنى البؤس والندم ، معترفاً بأننى لست أهلا على الاطلاق لأن أرفع اليكم التماسى المتواضع ، أتقدم جاثياً بطلب الرأفة من الدولة ، وأسألها أن تمنحنى بطريق العطف والجود مالا تستطيع بعد التأمل أن تأباه على بطريق الانصاف

وانى لأضرع الى الجود العالى أن يقوم بمونى حتى أستطيع الحياة ، وأستطيع فى المستقبل أن أقوم بالخدمات التى درجت عليها

وان حكمتكم لتأنس فى هذا التضرع الجليل صادق اهبتى ونياتى »

ولكن محكمة التحقيق لم تصغ الى تضرعه ؛ فزاد يأساً وبؤساً ، وعول على الرحيل معتصما بما بقى له من جلد وعزم ، فسافر الى فينا ووصلها فى يناير سنة ١٧٨٣ فى حال مؤلمة من الاعياء والفاقة ؛ ولبث يتجول حيناً فى فينا وباريس وهولندة فى ظروف نكدة مثيرة ؛ ومع ذلك فانا نراه أحياناً يحلم بمشاريع مدهشة فيفكر وهو فى باريس فى شق قنال أو اصدار جريدة ؛ بيد أنها كانت أحلام يائس مخرف ؛ وأخيراً استقر به المطاف فى فينا . وهنالك تعرف بسفير البندقية السنيور فوسكارينى فعطف عليه وعينه سكرتيراً له ؛ واستعاد الطريد البائس شيئاً من بهجة الحياة ، واتصل مدى حين بالمجتمع الرفيع ، وظهر فى المآدب والمراقص ؛ ولكن فوسكارينى لم يلبث أن توفى ، فتولاه اليأس القاتل مرة أخرى

وأقام مدى حين فى تبلتز فى شرحال حتى ساقته المقادير إلى التعرف بالكونت فون فالدشتاين ، فتأثر لفقره ويأسه ، وأعجب بذكائه وخلاله فعينه أميناً لمكتبة قصره فى « دوكس » من أعمال بوهميا بمرتب حسن ؛ وكانت الكونت فتى طروباً طيب القلب يعشق حياة اللهو والخلاعة ويجوب أنحاء أوربا فى طلب المسرة والمتاع ؛ وكانت خلاله مزيجاً من الشجاعة والضعف ، والكبرياء والخجل ، والبذخ والجود ، فأغدق عطفه على المحب الشيخ الذى خاض غمار حياة باهرة مؤثرة وألفى نفسه بعد طول التجوال فريسة البؤس واليأس

***

وكان قصر دوكس مقاماً بديعاً فخماً ينبئ بما لآله من النبل التالد والغنى الباذخ ، وكانت مكتبته الشاسعة المنيرة تضم أربعين

ألف مجلد فخم فى مختلف العلوم والفنون ؛ فكان ذلك المقام النائى الذى يجد فيه المفكر الفيلسوف ضالتــه ، هو المستقر والمثوى الأخير لذلك الذى ضاق به وطنه ، وضاقت به عواصم أوروبا

ولـكن كازانوفا لم يلق الهدوء الذى ينشد ؛ ذلك أنه أثار سخط الحشم والخدم بكبريائه وصلفه وجفائه ، فكانوا يعكرون صفاءه بخبثهم ودسهم ، وكانت نفسه تفيض مرارة من ذلك الصراع الوضيع الذى يجعله مع الخدم على قدم واحدة . وكان كلما شكا أمره الى الـكونت أجابه بابتسامة رقيقة ؛ فاذا شـكا الى الـكونتة والدته هدأت روعه وصرفته بأطيب الوعود

وكان يخفف من وقع ذلك الجدل النكد على نفسه ما كان يغمره به الـكونت من العطف ؛ ذلك أنه كان حين مقامه بالقصر يدعوه دائماً الى مائدته ، والى مختلف الحفلات والمآدب . وعندئذ يستطيع كازانوفا أن يمتع نفسه بقسط من الترف الناعم ، ويبدى ما كمن من خلاله ومواهبه الساحرة ، ويشعر بشىء من السعادة والغبطة

وكان الدرس أشد ما يؤنسه ويملأ فراغه . ذلك أن كازانوفا كان مفكراً واسع الاطلاع ، وكان يعشق القراءة والدرس ، ولـكن تجواله المتواصل كان يحول دون أمنيته ؛ فلما استقر فى هذا المثوى الهادئ الحافل بصنوف الآثار المتعة ، ألفى فرصته ، وانكب على القراءة يترع من مناهلها ؛ ويدون ما عن له من زبدها . ومنذ سنة ١٧٨٦ يتحفنا كازانوفا بطائفة من الـكتب والرسائل المتعة منها . « مناجاة مفكر » Soliloque d'un penseur (سنة ١٧٨٦) ، و « قصة ادوار والزابيث » Hist. A'Eoouard et Elizebeth (سنة ١٧٨٨) ، وهى مزيج غريب من الفلسفة والمغامرة والدين والتهكم . وفى سنة ١٧٨٨ ، أخرج كازانوفا كتاباً ممتعاً عن سجنه وفراره الشهير عنوانه « قصة فرارى من سجون جمهورية البندقية المسماة بالرصاص» L'Hist. de ma Fuite des Prisons deala République de Vcniae ete ؛ وفى سنة ١٧٩٠ نشر رسالتين فى مسائل رياضية ؛ وفى سنة ١٨٩٧ نشر رسالة فلسفية أخلاقية عنوانها «خطاب الى ليونار سنتلاج » Lettre à Léonard Snetlage ، هذا الى رسائل أخرى ما زالت مخطوطة محفوظة الى يومنا فى مكتبة « دوكس » الشهيرة

بيد أن أعظم أثر شغل فراغ كازانوفا ، وخلد اسمه فيما بعد ، هو مذكراته الشهيرة التى بدأ كتابتها منذ سنة ١٧٩١ ، والتى نرجئ الـكلام عليها الى الفصل القادم

وكان مما يعتز به أيضاً ويؤنس أعوامه الأخيرة اشتغاله بمكاتبة بعض العظماء الذين عرفهم مثل الـكونت دى لانبرج ، والأمير دى لينى ، والأميرة كلارى ، والأمير بيلوزولسكى سـفير روسيا فى درسدن ، والـكونت كينج ، والأميرة لوبكوفتز ، والأب ديلا لينا ، وغيرهم ؛ وكذلك بعض صـديقاته الذين عرفهم فى أواخر حياته مثل فرنشيسكا بوشينى آخر صاحباته فى البندقية ، وسسليا روجندورف ، والبزافون در ريكى وغيرهن ؛ وكان يزور مكتبة « دوكس » كثير من العظماء والـكبراء من كل فج ، فيسر بلقائهم ومحادثتهم ؛ وكان كازانوفا يثير بذكائه ووفرة عرفانه حوله كثيراً من الاعجاب والعطف ؛ وقد أعجب به كثير من كبراء عصره ، وقدروا مواهبه وتنوع معارفه وطرافة تفكيره ، وبثوه اعجابهم وتقديرهم شفاها وكتابة ؛ وكان ذلك يغمره سعادة وغبطة ورضى

بل لقد كان كازانوفا فى تلك الأعوام الأخيرة الهادئة من حياته الحافلة ، يتصور حول نفسه أفقاً من العظمة والشهرة ؛ وكان أيام تجواله قد زار الفيلسوف الأكبر فولتـير فى قصره ومستقره المنعزل فى فرنى ، وأعجب بحياته الهادئة وشـيخوخته الجليلة ، فكان يتصور نفسه فى أيامه الأخيرة ، فى نفس الأفق والظروف التى شهد فيها فولتير ، فتغريه تلك المقارنة الخلابة ، وتثير فى نفسه الهائمة طائفة من الأحلام اللذيذة الرائعة

وفى أوائل سنة ١٧٩٨ مرض كازانوفا وتفاقم مرضه بسرعة وشعر باقتراب أجله ؛ فتوالت عليه زيارات الأصدقاء والمحبين يغمرونه بعطفهم وعنايتهم ويرسلون إليه الأطباء والهدايا ؛ وفى الرابع من يونية قضى نحبه واختتم حياته العجيبة فى جو من العطف الذى طالما حرم منه أيام حياته ؛ ودفن على الأغلب فى مقبرة قصر « دوكس » ؛ بيد أن قبره لبث مجهولاً لم يكشف عنه البحث

(الخاتمة تأتى) محمد عبد الله عنان

النقل ممنوع

ليـــلة وداع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

قال لى صاحب : « أين نقضى سهرتنا الليلة ؟ »

قلت : « سهرتنا ؟ ؟ فهل كتب علينا أن نسهر الليلة ؟ »

فقال برقة ابليسية الاغراء : « انه آخر أيام المعرض ، أفلا يحسن أن نودع مدينة الملاهى ؟ »

فقلت : « من ذا تودع فيها يا شيخ ، وقد ودعت شبابك ؟ »

فلم ينهزم وقال : « نودع من خلقهن الله فى أحسن تقويم »

فقلت : ولكن فيهنّ من خُلقن على صور الأبقار والجواميس ، فهل نحتفل بوداع هؤلاء أيضاً ؟ »

فلم يصدّه حتى هـذا ، فلم يبق إلا أن نتوكل على الله ونستودعه نفوسنا ونذهب إلى مدينة الملاهى كما أراد ، وحسناً فعلنا ، فما كان يمكن أن نرى حشداً أعظم من هذا فى مكان أضيق من تلك التى سموها مدينة الملاهى ؛ وكانت النساء أكثر من الرجال ، وهن وحدهن معرض كامل ، فما يخطر للمرأة صورةٌ من صور الخلق فى المرأة إلا وهى موجودة ، وكانت الكثرة من العذارى الخود ، والخرّد الحسان ، اللواتى يترقرق الماء فى وجوههن من نضرة النعيم ، ويتثنين من اللين فى غير استرخاء ، أما القلة فكانت من الخدلّجات الممتلئات الأذرع والسيقان ، العظيمات الأوراك والبطون ، المترجرجات اللحم ، المستديرات كأنهن البراميـــل ، فلو أرقدتهن على جنوبهن ودفعتهن لتدحرجن بلا توقف

وكنت كلما رأيت واحدة من هؤلاء وقفت كالجندى ، ورفعت يدى إلى جبينى بالتحية العسكرية ! فيسألنى صاحبى عما أفعل ؟ فأقول : « هذه تحية العظمة يا سيدى ! ! إلى متى نظل نبخس الناس أشياءهم ونغمطهم فى مصر ؟ ؟ لقد آن جدا أن نقر لكل انسان بحقه ومزيته »

والتقينا بأصحاب لنا ، فصرنا جماعة ومضينا نتنقل من مكان إلى مكان ، وإذا بى أرى قريباً لى ومعه صديقة له ، ما رآنى قط مقبلا عليه وهى معه إلا نهض بها زاعماً أن عليه أن يفعل كيت وكيت ، أو أن يقابل فلاناً أو علاناً من خلق الله الذين يتحرى أن ينتقى لهم أسماء لا أعرفها لانها مخترعة لا وجود لها ، فأكاد أتميز من الغيظ ، ولكن ماذا أصنع ؟ غير أنى فى هذه المرة أدركته قبل أن يقوم — أعنى قبل أن يرانى ، وكان جالساً معها — كما لا أحتاج أن أقول ، فحملت كرسياً إلى حيث هما ، ووضعته وقعدت عليه أمامهما ، ثم حييتهما أحسن تحية وأرقها — تحية تلين الصخر ، لا بل تذيبه — ولكنّ قريبى ، وقاك الله ، أصلب من الصخر والحديد ، فما كاد يرانى أصافحها حتى قال لها وهو يجذبها من ذراعها : « تفضلى فقد تأخرنا جدا »

فابتسمت — وهل كان يسعها إلا ذلك وهى ترى هذا منه فى كل لقاء ؟ — فتشجعت وقلت : « يا أخى حرام عليك ! ! ما هـذا العنف ؟ — هذا ذراع غض بض يا سيدى ، وليس بعصا شرطى ... »

فابتسمت مرة أخرى ، فقلت فى سرى هذه علامة الرضى ، وإنها والله لراغبة فى البقاء ، وتذكرت قول زميلنا القديم : « وفاز بالطيبات الفاتك اللهج » فقلت لها : « العجلة من الشيطان يا مولاتنا . . وما زلنا فى أول الليل ، وماندريك ويدرينى أنها ليست مشتاقة أن تركب معى واحداً من هـذه القطر التى تشبه الترام وتجرى بالكهرباء وتتدافع وتتصادم فتتعالى الصيحات والصرخات وتجلجل الضحكات ، وتنشرح الصدور . . . قومى ياستى معى أركبك واحداً منها »

فصاح بى وهو يدفع ذراعه أمامها ليمنعها أن تقوم : « معك ؟ تقول معك ؟ . معك أنت ؟ . يا خبر اسود ! . إنت مجنون ؟ »

فلم تفزعنى هذه الثورة ، لأنى أعرف سببها وباعثها ، وقلت له وأنا أبتسم : « صحتك . . صحتك . . لا تهيج هكذا فانى أخاف على قلبك . . ألم ينصحك الطبيب بالابتعاد عن كل ما يهيج أعصابك ؟ . أقعد . . أقعد ساكناً واشرب ماء بارداً حتى نعود اليك . . لن يطول غيابنا عنك . . قومى يا سيدتى . . لا تقلقى عليه . . إنه بخير ما اجتنب ما يورثه اضطرابَ الأعصاب »

فنهض هو بدلاً منها وقال بلهجة المغيظ المحنق : « أعصاب ؟ . قلب ؟ . طبيب ؟ . عن أى شىء تتكلم ؟ : كيف تسمح لنفسك أن تقول إنى مريض بقلبى ؟ . »

فضحكت وقلت : « لا مؤاخذة ! . لقد نسيت أن عقلك لا قلبك هو المريض . . على كل حال . . عقلك . . قلبك . . سيان . . والخطأ مردود . . والآن وقد انتهى الخلاف وحسمنا

النزاع فيحسن أن ندعك وحدك قليلاً حتى تثوب اليك نفسك الوديعة الرقيقة الكريمة الجمة المروءة اا . . . اا . . ماذا أيضاً يا بارد يا أناني ! ؟ »

فأرسلتها الفتاة ضحكة مجلجلة تجاوبت نفسي بأصدائها ، فصار رنينها في قلبي لا في الفضاء . ولكنه قطع عليها الضحك بيمين أقسمها ألا تقوم مني ، فوجمت وشعرت بقلبي يبكي لها ، فقد كان من الواضح أنها تشتهي أن تركب هذا الترام ، وقريبي يأباه عليها لأنه يؤثر الاحتشام والتلفع بالوقار ، ثم قلت لها : « لا بأس . . لا بأس . . ما لا يدرك كله لا يترك كله . . أنظرى إلى وأنا أركب وسأترك مكانك إلى جانبي فيها خالياً ، ففي وسعك أن تتصوري نفسك جالسة فيه كما سأفعل تماماً . . وإلى اللقاء القريب ، وعسى أن تتمتّى بهذه اللعبة التي ألعبها إكراماً لسواد عينيك . . أم تراها زرقاوين ؟ ؟ أرنيهما بالله قبل الركوب حتى لا يغلط خيالي . . »

فقال قريبي على سبيل التوديع : « اذهب ، اذهب ولا تعد ! »

فقلت : « يا شيخ حرام عليك ! أنا شاب . . »

وركبت وحدي احتفاظاً لها بمكانها ، وكان يكفي أن أصون لها مكانها في قلبي ، ولكن الوفاء — صانك الله — داء مكتسب . وكان الميدان هادئاً ، والراكبون يتحاورون ، ويهرب بعضهم من بعض ، ويتقون التصادم ، وإن كان لا خوف منه ، فجريت أنا على نقيض ذلك ، وجعلت وكدى أن أصدم الذي يروقني ، وكنت كلما أقبلت بسيارتي على أخرى لأصدمها أصيح براكبها — وأنا أدفع بقبضة يدي في الهواء — بُممم ! فعلا الصخب — كما ينبغي أن يحدث — وكثر الضحك واللغط والصياح والصراخ ، وانتهى الدور فنسيت صاحبتي التي تركتها مع قريبي ، وشغلني ما أنا فيه عنها ، وألهاني عن ذكرها كما هي عادتي ، فان اللحظة الحاضرة تذهلني عن كل ما مضى وكل ما عسى أن يجيء ، ولعبت دوراً آخر ، ثم غيره ، وغيره ، حتى أضناني الجهد المتواصل ، وابتلت ثيابي من كثرة العرق المتصبب ، فتذكرت قريبي وصديقته ، وقلت أجلس معهما برهة أستريح فيها وعسى أن يهديه الله ويرقق قلبه القاسي ، وعدت إلى حيث تركتهما فاذا بهما قد ذهبا . .

أي والله يا ناس ! ! خطفها قريبي — قريبي لا أحد الغرباء — وطار بها وخلفني أتلهف عليها وأسخط عليه ، وأذم الغدر والخيانة والأنانية والأثرة وألعن أمثاله من الأقرباء الذين يعمر قلوبهم الحسدُ والحقدُ لا الحب والاخلاص والتعاون على البر والتقوى

ولمحت صديقنا الدكتور م . فقلت أسلم عليه ، وكان حوله سربٌ من الناعمات اللينات ، المسترسلات الأعطاف ، المستغنيات بالجمال عن الزينة ، المُبَتّلاتِ الحسن على الأعضاء فلا ترى لشيء في أجسامهن الحلوة أوفر من حظه أو أقل ، فدنوت من إحداهن — وكانت طويلة العنق مسمورةً لا رخوةً ولا مترهّلة — وقلت لها : « ماذا يقول لكن دكتورنا الساحر ؟ . هل لك في رهاني ؟ . »

قالت : « على أي شيء ؟ »

قلت : « على أن عينه زائغةٌ وأنه يريد أن يتزوجكن جملة وإن كنتن سبعاً ؟ »

فضحكت وقالت : « صدقت »

قلت : « هاتي إذاً ، وليعوضك الله خيراً . . واحذرى أن تراهنيني مرة أخرى »

قالت : « ولكني لم أفعل »

قلت : « بلى .. هاتي !. ما هذه المماطلة ؟. إنه خلقٌ لا يليق بمثل هذا الجمال المشرق »

قالت : « أما إن هذا لغريبٌ . . والله ما راهنتك »

قلت : « لا فائدة . . تفضلي معي إلى هذا الترام واركبيه بجانبي ، فان ركوبه موصوف لابراء الذمة »

فضحكت وسألتني : « ولكن من أنت . . »

قلت : « أنا صاحب الدكتور الذي يريد أن يتزوجك على كل هذه الضرائر ... تعالي واكسبي صداقتي لتفوزي به وحدك »

ولحنى الدكتور وأنا أمضي بها فصاح : « اللص .. اللص .. أدركوه . خطف البنت .. الحقونا يا ناس »

وخفت أن يصدق بعض البلهاء فأقع في مأزق ، فجعلت أصيح مثله : « اللص .... أدركوه .... خطف البنية .... اجروا وراءه »

وانحدرنا الى الملعب ونحن نكاد نسقط على الأرض من كثرة الضحك . وقبل أن يبدأ اللعب وتدور السيارات تآمرت مع زميلتي على الدكتور واتفقنا أن تركبه سيارة وأن نوسعه بعد

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

الدفتريا

بين واجد سمها الفرنسي ، وكاشف ترياقها الألماني

وصل الفائت

اكتشف لفلار مكروب الدفتريا ، ووجده في حلوق الأطفال ، ولم يجده في أي جزء آخر من أجسامهم . فتعجب كيف أن المكروب لا يفارق هذه الحلوق ؛ ومع هذا يسري بالموت في الأجسام . فتراءى له أن المكروب لابد يفرز سماً هو الذي يدور في الجسم فيميت . فجاء أميل رو بعد ذلك فحقق رؤيا لفلار فكشف عن هذا السم ، واستخلص وعرف خواصه ، وأن الأوقية منه تقتل ٧٥٠٠٠ كلب

— ٣ —

ولكن كان في مكان آخر بعيد عن باريس أميل آخر قائم في مثل هذا العمل ناصبٌ فيه . هذا أميل أغسطس بارنج Emil August Behring . كان يشتغل في معمل كوخ ببرلين ، في ذلك البناء المهدّم الذي يسمى المثلث Triangel في شارع شومان . ففي هذا البناء أخذت الحوادث تتمخض عن أمور جليلة ، وكان به كوخ ، ولم يكن الآن دكتور القرية الصغير الخامل ، بل كان السيد الأستاذ ، ومستشاراً من مستشاري الدولة صاحبَ جاه وربَّ ذكر ، ولكن برغم هذا لم تضق قبعته برأسه وكان ينظر على عادته من خلال نظارته المعهودة ولا يتكلم إلا قليلاً ، وكان نصيبه من احترام الناس كبيراً هائلاً ، وكان عندئذ مشغولاً بأمر علاج للسل خال أنه اكتشفه . فكان يحاول أن يقنع نفسه على الرغم منها بأنه علاج صادق ، وكان هذا بسبب إلحاح السلطات عليه فيه ، (والعلماء يلعنون السلطات بحق أحياناً على الرغم مما يكون من جودهم وسابغ كرمهم) ، أو على الأقل بهذا يتحدث اليوم شيوخ صيادي المكروب الذين حضروا ذلك العصر ولا يزالون يذكرون أحداثه المجيدة

« لقد أسبغنا عليك الشارات ، وأعطيناك المكرسكوبات والخنازير الغينية وما إليها ، فلا أقل من أن تردّ الجميل فتكشف لنا عن علاج كبير يدوي خبره في الآفاق ، فيبني للوطن الألماني مجداً كالذي بناه بستور لوطنه الفرنسي » . هذا ما كان يسمعه بستور كل يوم . هذا صوت الغواية الذي يطرق أذنه كل حين ، وإلى هذا الصوت استجاب كوخ أخيراً ، ومن ذا الذي يلومه ؟ وأي إنسان يقوى على الثبات على طريق العلم السويّ ، وإلزام نفسه أسلوبَ البحثِ الحق ، والحكومات إلى يمينه تصيح به أن يجد لها مكانة في السماء ، والأمهات إلى يساره تصرخ له عسى أن يجد لأولادهن الهالكين مكاناً بين الأحياء . نعم إلى هذا الصوت استجاب كوخ ، فكشف عن حتفه بظِلْفه ، وأعلن للدنيا اكتشافه التوبركولين Tuberculin علاجاً للسل ورحمة للمسلولين ، فكان من إخفاقه الذي كان ، ولكن ما لبث كوخ أن قام يكفّر عن هذا بإعانة الشبان من أعوانه في الكشوفات البارعة التي كانوا فيها ، ومن هؤلاء الشبان أميل بارنج ، وكان باحثاً شاعراً أعانه كوخ بقريحته النقّادة الباردة ، صوّب ضوء مصباحها الهائل على أعماله ، فاستعرف بارنج في نورها الساطع على

ذلك صدما وخبطاً ، فأنا نعرفه يخاف الرجات ويشفق من عواقبها — لا ندري لماذا — وقد كان . حاولنا اقناعه بالحسنى أولاً فلم يقتنع ، فلم يبق إلا أن نحمله قسراً على الركوب ، فجرته أربع فتيات فظل يقاومهن حتى قلت له : « أظنك استحليت هذا الجرّ ... تفضل يا ... »

فكف عن المقاومة استحياء ، وقال لي وهو يركب السيارة : « الله يلعنك يا شيخ ... أخجلتني والله !

قلت : « لا عليك يا مولانا ... تفضل وأرنا همتك »

وصدمته صدمتين ، ثم تركته لمن هن أولى بذلك ، فلما خرج نظر إليّ وقال : « وصلتنا منك زقات يا سيدي .. نشكرك »

فقالت له احدى الفتيات : « لو كنتَ ركبتَ معي يا دكتور ؟ ؟ ... »

فقاطعها وقال : « إذن لكانت الزقات قد كثرت يا ستي .. كلا ! الخيرة في الواقع »

وهكذا ودعنا مدينة الملاهي ..... فليتها تعود لنودعها مرة أخرى ....

إبراهيم عبد القادر المازني

ما يأخذ به ، واستمرف فيه على ما يَدَع

أى بيت لسيادة المكروب كان بيت « المثلث » هذا . كان قذراً معتماً كالقبر ، ولكن اجتمع فيه رجال كوخ الشباب فبثوا فيه الحياة بتجاربهم المتواصلة ، وهزوا جدرانه هزاً بصراخهم وحجاجهم فيه ، وكان من بينهم بول إرليش Paul Ehrlich ، يُعقب السيجارةَ أختها ، ويلوث يديه وثيابه حتى وجهه بكل صبغة من كل لون من ألوان الطيف ، وكان قائماً بتجارب طموح ، يحاول بها أن يعرف كيف ترث أطفال الفئران عن أمهاتها الحصانة من بعض سموم النبات .. وكان من بينهم كيتاساتو Kitasato ، وكان يابانياً ذا وجه أقور كالدائرة ، وكان قائماً يحقن بَشِلاّت كُزاز الفك فى ذيول الفئران ، ثم هو يصبر حتى تصبّ البشلات سمها فى الفأر ، ثم يقط ذيولها الوبيئة ليرى هل يقتلها السم وحده وهى بتراء .... وكان من بين من كانوا فى هذا البيت رجال آخرون ، بعضهم ذهب الزمن باسمهم ، وبعضهم اشتهروا وخلد ذكرهم ، واختصاراً قامت هذه العصابة الألمانية تبغى هزيمة الفرنسيين تحت وابل من التجارب هائل ، وتريد أن تسبقهم إلى تخليص بنى الانسان من أرزاء دنياهم

والآن نريد أن نخص بالذكر من بين هؤلاء أميل بارنج . كان شاباً عدا الثلاثين من عمره ، وكان طبيباً فى الجيش ، وكانت له لحية آنق من لحية كوخ ، ولكنها كانت أقل دلالة على فتق الحيلة وابتكارها ؛ مع هذا وبرغم أسلوب لحيته المُرسل ، كانت له رأس الشاعر ؛ وبرغم حبه للفصاحة وإغرامه بفنون البلاغة ، لَزِم خوان معمله بقدر مالزمه أى باحث آخر . وبينا هو يكشف فى دم الفئران عن مادة تقتل بشلة الجمرة ، كان يصف كشف أستاذه كوخ لبَشلة السلّ بأنه فى المجد مثل قمة جبله الحبيب بين جبال الألب ، وهى فى بياض الثلج ولون الورد ، ولزمته فكرتان ما فتئتا تطوفان برأسه . فكرتان علميتان ومع ذلك تَمُتّان إلى الشعر بنسب قريب . إحداهما أن الدم أبدع سائل يدور فى جسم حىّ ، والثانية أنه لا بد من وجود مواد كيميائية تقتل فتمسح المكروبات من أجسام الانسان والحيوان مسحاً دون أن تضرّ بها وهذه الفكرة الأخيرة سبقه آخرون إليها

قال « سأجد مادة كيميائية تُبرىء من الدفتريا ! » ، وحقن طوائف عديدة من الخنازير الغينية بزريعات قتالة من مكروب الدفتريا . فلما مرضت ، وازدادت مرضاً ، حقن فيها كثيراً من المركبات الكيميائية . فجرّب فيها أملاح الذهب ، وهى أملاح غالية ، وجرّب النفتيل أمين Naphthylamine ، وحقنها بما يزيد على عشرين مادة بعضها عاديّ مألوف ، وبعضها غريب نادر . عرف أن هذه المواد تقتل المكروب فى أنبوبة الاختبار دون أن تضرّ بزجاجها ، فآمن فى سذاجة أنها لا بد تقتل هذا المكروب تحت جلد الخنزير الغينى دون أن تضرّ به ، ولكن خاب إيمانه وأسفاه . وامتلأ معمله بالخنازير الميّتة والتى هى فى سبيل الموت فكان كبيت الجزارة ، وكان فى ذلك مايكفى ليقنعه بأن الفرق بين عقاقيره والمكروب فى الأذى غير كبير ، وأن كليهما يفتك بالخنازير ، وزادت أكوام الجثث حوله ، ومع هذا لم ينقص إيمانه بأن هذا العُقّار العجيب الذى سيَشفى من الدفتريا لا يزال مختبئاً بين صفوف المواد الكيميائية ، وهى ألوف فى الوجود ، وأخيراً وقع من بحثه الذى أفرغ فيه كل عزمه وخبط فيه على غير هدى ، وقع على مادة ثالث كلورور اليود

ضرب بمحقنه جرعات عدة من بشلة الدفتريا تحت جلود بضعة من الخنازير ، وكانت جرعات تكفى لقتلها . ومضت ساعات قليلة فأخذ المكروب يفعل فعله ، فتورم الجلد حيث ضرب المحقن ، وأخذت الحيوانات تميل برءوسها : فلما مضت ست ساعات حقن بارنج فيها كلورور اليود . وانتظر ما يحدث لها فقل رجاؤه فيها وظن أن الاخفاق جاءه مرة أخرى . ومضى النهار ولم تتحسّن الحال . وجاء الغد فبدأت الخنازير تخور . فأخذها وأرقدها على ظهرها ثم أخذ يَخِزُها باصبعه ليرى هل تعود فتقف على أرجلها . قال لأعوانه وهم فى دهشة مما يسمعون : « إذا أنتم وخزتم الخنزير وهو على ظهره فاستطاع القيام ، علمتم أن الرجاء لم ينقطع فيه بعد » هذا هو محك الأمل عنده ! هذا هو مقياس الرجاء ! مقياس تعوزه الدقة إعوازاً شديداً ، وينقصه التهذيب نقصاً كبيراً . تخيّل ما يكون الحال لو أن طبيباً اتخذه وسيلة يعلم بها أيطيب مريضه أم يموت . وقلّت حياة الخنازير المحقونة بالكلور فقلّت حركتها عند الوخز حتى انقطع منها الرجاء

وذات صباح جاء بارنج معمله فوجد الخنازير واقفة على أرجلها !

كانت لا تكاد تستقر عليها ، وكانت نحيفة غاية فى النحف ، ولكنها كانت آخذة فى الشفاء ! نعم آخذة فعلاً فى الشفاء من الدفتريا بعد أن هلك قبلها من رفقائها ما هلك

وهمس بارنج لنفسه ! « لقد شفيتُ من الدفتريا ! »

وتملكته رغبة حادّة أن يشفى بهذه المادة اليودية خنازير أخرى . فكانت هذه الحيوانات المسكينة تموت أحيانا من المكروب ، وأحيانا كان يقتلها هذا الدواء . وفى القليل النادر كان يُشفى خنزير أو اثنان فيقومان من المرض على حال كالموت . لم يكن فى هذا العلاج الفظيع يقين ، ولم يكن فيه منطق ولا توافق وانسجام . والخنازير التى اشتفت به لاشك ودّت أنها ما اشتفت ، ذلك لأن الكلورور بينما كان يُبرئها مما بها ، كان كذلك يحرق جلودها فتتخرّق خروقا تظل متقرّحة لا تلتئم ، فلا تلبث أن تصطدم بشىء حتى تَصيت هذه الحيوانات المسكينة من ألمها الشديد . تلك حال مفجعة لا ترضاها القلوب

ومع هذا فالحقيقة الواقعة أن بارنج كان بين يديه قليل من تلك الخنازير لولا هذا اليود لقتلتها الدفتريا ، لولاه ما سعت بين يديه كما تسعى . إنى أفكر كثيراً فى أمر هذه القوة الخفية الدفاعة التى لا تفتأ تغرى بارنج وأمثال بارنج بعلاج الأمراض . فبارنج وأمثاله لم يجروا فيما صنعوا وراء الحقيقة ، ولم يدأبوا ما دأبوا ليجنوا المعرفة ، بل هم انما مارسوا التجربة طلباً للعلاج ، وتسلّط عليهم طلب العلاج فطلبوه جنونا ، فأجازوا قتل الحيوان حتى الانسان بداء ليخلّصوه من داء آخر .... لم يقفوا عند حدّ ، ولم تنهم عما طلبوا مخافات .... من ذلك أن بارنج قام يجرب هذا الكلورور النقّاط الكاوى فى الأطفال المرضى بالدفتريا وليس لديه من دليل على صلاحه غير تلك الخنازير القليلة النحيلة الهشيمة

وعاد من تجربته يقول : « لقد جربت كلورور اليود فى أطفال مرضى بالدفتريا ، واتبعت فى ذلك الحذر والحيطة ما استطعت ، فخرجت على نتائج لا تُشجّع أبدا ... »

ولكن تلك الفئران الضعيفة التى نجت من الدفتريا بفعل هذه المادة كانت لا تزال بين يديه ، كانت لا تزال تقع عليها عيناه فتعلّق بارنج من أجلها بوهمه القديم ، أنه لابد خارج من هذه المجازر ببعض غايته . وتعطّفت عليه المقادير ، فأخذ يتفكّر ، وإذا به يخرج من الفكر فيتساءل : أتكون هذه الفئران قد تحصّنت الآن من الدفتريا بعد الذى جرى لها . وما لبث أن جاء بها وحقن فيها جرعات هائلة من بشلة الدفتريا — فاحتملتها ! نعم احتملتها فلم تستقم شعرة واحدة على جلودها برغم هذه الملايين من المكروبات وهى كفيلة بقتل عشرة منها . إنها حصينة كما خال !

وكانت عندئذ ثقته فى المواد الكيميائية ضاعت ، فلم يعد يطلب من بينها علاجاً للدفتريا . وكيف لا تضيع بعد هذا العدد الهائل من جثث الحيوانات الذى أرسله إلى أسفل البناء ليقوم الخدم باحراقه . أضاع أمله فى الكيميائيات ، ولكنه تمسك برأيه القديم عن الدم ، فكان لا يزال يرى أنه أبدع سائل يدور فى جسم حىّ . أعجب به حتى عبده . واتقد خياله فارتأى له فضائل لا تُرَى وخصائص غريبة لم تُسمع . فقام إلى فئرانه العاجزة الضعيفة التى برئت من الداء فمص شيئاً من دمها ، مصّه بمحقنه من شريان فى رقبتها ، ثم أودع هذا الدم أنابيب من الزجاج ، ثم ترك هذه الأنابيب حتى انفصل من الدم مصله الرائق الأصفر ، فصعد مخلّفاً فى أسفل الأنبوبة قطعه الحمراء ؛ ثم مصّ هذا المصل فى أنبوبة صغيرة ، ثم خلطه ببشلات الدفتريا الفاتكة

وتفكّر بارنج : « لا شك أن دم الفئران به شىء يحصّنها من الدفتريا . لا شك أن به شيئاً يقتل بشلاّت الدفتريا ... »

ثم نظر إليها فى هذا المصل من خلل مجهره وهو يؤمّل أن يراها تنضمر ثم تموت ، فلما حدّق فيها وجدها ترقص وتزيد ، إذن هى لا تموت بل تزيد وتربو ، أو على حد قوله الأسيف فى بعض ما كتب « تتكاثر فى وفرة عظيمة » . ولكن مع هذا فالدم سائل عجيب بديع . ولابد إليه ترجع حصانة هذه الخنازير . وهتف فى نفسه هاتف يقول : « وعلى كل حال ألم يثبت هذا الفرنسىّ رو Roux أن البشلات لا تقتل بل الذى يقتل هو السم الذى تصنعه ؟ ألم يثبت أن سم الدفتريا لا بشلاتها هو الذى يقتل الأطفال والحيوانات ؟ . . . إذن فلعل هذه الخنازير الغينية التى شفاها الكلورور قد تحصّنت من سم الدفتريا ! »

وأخذ فى التجربة . وبعد زمجرة وأفأفة ، وبعد تبلّل وتقذّر قمينين بكل شاعر عالم ، جهّز بارنج حساء احتوى سم الدفتريا وخلا من مكروبها . وأخذ من هذا الحساء فحقن جرعات هائلة تحت

جلود خنازيره الحصينة وكان قد تناقص عددها . فاذا بها حصينة تجاه السم . وأخذت قروحها الماضية تلتئم ، وأخذت تكبر سمنا . هذا أمر لا شك جديد فى علم المكروب . أمر ربما كان ارتآه رو ولكنه لم يتحقق على يديه . حمى بستور الشياه من داء الجمرة ، وحمى الأطفال وحصنها من عضة الكلاب المسعورة ، ولكن هذا الذى أتاه بارنج غير هذا وذاك . هذا أمر طريف يقف العقول حيرى . بارنج يصيب الخنازير بالدفتريا ، ثم هو يشفيها منها بعلاج فظيع كاد يوردها الموت ، ثم هو بذلك يحصنها من سم الدفتريا الفتاك ، من ذلك السم الذى تقتل الأوقية منه ٧٥٠٠٠ كلب

« صاح بارنج : « فى هذا الدم لا شك يوجد الترياق الذى يحمى هذه الخلائق ، وفيه لابد أنا واجده ! »

وكان لا بد له من الحصول على شيء من هذا الدم ، ولكن لم يبق لديه من هذه الخنازير الحصينة شيء ، أو لم يكد يبق منها شيء ، فعمد إلى خنزير قديم منها كان أستنزف دمه مراراً ، فشق رقبته يبحث عن الشريان الذى يمص منه الدم فوجده انبدم ؟ أو كاد من كثرة ما عاوده . فأخذ ينكش حتى حصل على بقية قليلة من الدم جاء بها من شريان فى رجل هذا الحيوان . له الله من حيوان جدير بنا أن نذكره بالحسنى . لقد قاسى بارنج فى أيام هذه التجارب ألماً نفسياً كبيراً ، كما قاست حيواناته ألماً جثمانياً كبيراً . فلو أن رحمتنا تُقسّم بينهما ، بين بارنج وحيواناته ، ما درينا أيهما أحق بأكثرها . كان يستيقظ كل يوم فيذهب توّاً إلى معمله وهو متوتّر الأعصاب ليطمئن على حياة هذه الخنازير الحصينة ، هذه الخنازير القليلة المتناقصة التى لا تُشترى بمال ....

وعلى كل حال حصل أخيراً على قطرات قليلة من مصل حصين . فمزجها فى أنبوبة من الزجاج بمقدار كبير من حساء كان ربّى فيه مكروب الدفتريا لكى يبث فيه من سمه . ورشح الحساء قبل مزجه بالمصل ليخلص من المكروب

وحقن من هذا الحساء الخليط فى خنازير غينية جديدة غير محصّنة — فاذا بها لا تموت

صاح بارنج : « صدق جوتيه Goethe الشاعر العظيم حين قال : « إن الدم عصير غريب »

وأخذ يستعد بعد ذلك لتجربته الحاسمة الشهيرة ، وعين كوخ الامام الأكبر لا تبرح تنظر اليه ، وتجمعت حوله تلك العصابة الصغيرة المجنونة من رفقائه فى ذلك المعمل ، وازدحموا وقد انحبست أنفاسهم فى انتظار ما قد تتمخض عنه هذه التجربة الكبرى ، تخلط سم الدفتريا بمصل أتى به من دم خنزير سليم لم تصبه الدفتريا يوما ، ولم يتحصن منها أبدا . ثم حقن هذا السم الخليط فى خنازير جديدة ، ففعل فعله المنتظر فيها . ولم يعقه عن ذلك المصل الذى خالطه ، فساء حالها بعد ثلاثة أيام وسرى فيها برد الموت . ووضعها على أظهرها ووكزها ولكنها لم تبد حراكا ، ولم تمض ساعات حتى لفظ آخر أنفاسها وذهبت إلى حيث يذهب الأموات

فصاح بارنج : « إن مصل الخنازير الحصينة — مصل الخنازير التى أصابتها الدفتريا ثم اشتفت منها — هذا المصل وحده هو الذى يقدر على محو سمّها . وكأنى بك تسمعه يتمتم لنفسه وهو المداوى الكبير : « والآن فلعلى قادر على تحصين حيوانات أكبر ، فاستخراج مقادير أكبر من هذا المصل الذاهب بسم الدفتريا ، وعندئذ آخذ فى تجربته فى الأطفال المصابين ..... إن الذى يشفى الخنازير الغينية لا بد أن يشفى الأطفال »

فى العدد القادم : بارنج يجرب مصل الدفتريا فى الأطفال — أحمد زكى

حِيَلُ الضمير

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

الضمير عند بعض الناس ترس الخائف الذى يحتمى بمجنه ، وهو عند غيرهم سلاح الصائل ، وعند آخرين آلة نصب واحتيال ، وعند غيرهم بمنزلة الثياب الجدد التى يلبسونها أيام الأعياد والمواسم والصلوات ويخزنونها فى الأيام الأخرى وهو تارة كالمصباح المنير

وترى كثيراً من الناس يكثرون من ذكر ضمائرهم أو يفعلون ما هو أدهى من ذلك فيكثرون من ذكر العدل والحق ، وهى لفيات يطربها كل منهم ويود أن يضعها فى فم غيره ، وهى أحمال وأثقال يمدحون الاضطلاع بها وكل يود أن يضعها على كتف غيره أو على عنقه ، وما ذلك إلا لأن الناس ينشدون السعادة ، والسعادة لا تكون إلا إذا اصطلح شر الحياة وضمير الانسان ، وإذا اصطلح المثل الأعلى ومثل الحياة الدنيا ، وقد يكون فكر المرء وقوله خيراً من خلقه وفعله ، لأن أعمال المرء رهينة باحساسه لا بفكره وقوله ، وقد يكون فكره نبيلاً وقوله جليلاً ولكن إحساسه يدفعه إلى سبيل غير سبيل هذا النبل والجلال فى القول والفكر

ولما كانت الرذيلة أحوج الأشياء إلى مظاهر الفضيلة عم الكذب والرياء بين الناس انتفاعاً بمظاهر الفضيلة وحقيقة الرذيلة من كسب أو متعة . وهذه المظاهر تجوز على الناس ويحسبونها فضيلة أو هم يدعون الانخداع لها رغبة فى التقرب إلى صاحبها والانتفاع برضائه عن انخداعهم بظواهر نفسه ، وهذا منشأ انقلاب أوضاع الحياة ، وهم يطلبون منه أن يدعى الانخداع بظواهر نفوسهم كما ادعوا الانخداع بظواهر نفسه ، والمسألة كلها مسألة كسب يتبادل فيتعاونون على الحياة بتزكية كل منهم الآخر

وللضمير وسائل أخرى لتزكية النفس كأن يخلع صاحبه عيوب نفسه على غيره ، ويلج فى معاداته كى يبرئ نفسه فتكون لجاجته فى خلع عيوبه على غيره دليلاً على عيوبه كما تكون لجاجة الأجرب فى الحك دليلاً على موضع الجرب منه فى نظر الطبيب

وكثيراً ما يتمحل الضمير الأعذار من أجل رغبة صاحبه فى الأذى ولذته فى الاساءة إلى الناس ، وعوامل الشر فى نفس المسىء قد لا تكون فى حاجة لمسوغ يثيرها ولكنها تكون فى حاجة إلى فرصة تستخدمها حتى ولو لم يكن لها مسوغ ، فان مسوغ الاساءة فى كثير من الأحايين فى نفس المسىء لا فى عمل من أسىء إليه لأن كثيراً من النفوس بها شهوة إلى الأذى إذا أرضتها أحست راحة وسعادة فى إرضائها ، غير أن بعض شهوات الأذى لا يرضيها إلا ما أرضى نفوس قدماء الرومان عند رؤية الوحوش تفتك بالأجسام ، وبعض شهوات الأذى تكتفى بالغيبة والنميمة والكذب ، وعواقب هذه قد لا تقل عن عواقب تلك جرماً وجناية وإن كان صاحبها لا ينعت بالمجرم الجانى وإن كان ضميرها أهنأ الضمائر بالاً وأروحها خاطراً

والضمير كثيراً ما يكون فى الحياة كالسفينة الصغيرة فى البحر المحيط الذى هاجته الأعاصير فقد لا تغرق السفينة كما لا يغرق الضمير ولكنها تضطر أن تسير فى مهب الأعصار كما يسير الضمير فى مهب أعاصير الميول النفسية وما تقتضيه من كذب ونفاق

والكسب والجاه والصداقة والغرور هى العقاقير التى تخدر الضمائر بها ، وهى البلسم الذى تداوى به آثار وخزاتها ، وهى المادة اللزجة التى تطلى بها الضمائر كى يصطاد بها أصحابها طيور السعادة واللذات والمكاسب كما تطلى الغصون بتلك المادة اللزجة التى تلتصق بها العصافير على غصون الأشجار ثم يأتى الصائد فيجمعها أو هى المادة اللزجة الأخرى التى يطرد بها الذباب اللاذع المسمى بخواطر التأنيب والوخزات

ومن أجل ذلك كثيراً ما ترى ضمير المرء عوناً للجانى الذى يرجى نفعه أو جاهه أو وده أو يرجى منه ارضاء غرور صاحب الضمير المناصر له . والناس فى سرائرهم يعرفون أن ضمائرهم ليست دائماً مصباح الهداية الذى يدعونه ، والانسان يتجنب فحص نفسه والبحث عنها ، وإذا كلف أو دفع إلى ذلك حاول التخلص من فحص نفسه فيقلب فحصها إلى حديث فيحدث نفسه أو تحدثه ويمنيها أو تمنيه ، ثم يعود فيقول إنه فحص نفسه وهو قلما يفعل ذلك إلا إذا دهمته مصيبة تجعله يشك فى نفسه فيفحصها فاذا لم تدهمه مصيبة تجنب فحص نفسه إلا إذا كان مريضاً بداء الخوض فى النفس وفحصها وقد يكون مرضاً إذا استفحل وعم وتطلب منه كل وقته ، ولكن مرض البحث فى النفس هذا مرض نادر فى الناس وأكثرهم لا يبلغ به البحث فى نفسه منزلة صغيرة

أو كبيرة ولو أن هذا البحث فى النفس أصبح عادة لقل شرهم من غير أن يمنعهم بحثهم من الاقدام فى الحياة إلا إذا استفحل وهو قلما يستفحل فيدعوهم استفحاله إلى الشك والتردد والاحجام واتهام النفس فى كل أمر

ولولا أن الناس يعلمون عن عيوب ضمائرهم وضمائر الناس الشيء الكثير الذى يحاولون إخفاءه ما كثر سوء ظنهم بالنفس الانسانية ، ومن العجيب أنهم يحاولون جعل حسن الظن بالنفس الانسانية مبدأ عاماً وهم فى سريرتهم يسيئون الظن بكل نفس من نفوس الناس ، وهذا الاختلاف بين المبادئ النظرية والمعتقدات العملية أمر تشوق دراسته ، والقصد من تلك المبادئ النظرية حمل الناس عليها للانتفاع بها لأن كل إنسان يود أن يحسن غيره به الظن وأن يسيء هو الظن بغيره ، ومن عجائب الضمائر أنها قد تغرى أصحابها بأن يعتقدوا إذا حلت بأعدائهم مصيبة أن المصيبة حلت بهم لأنهم أعداؤهم

والخبرة بالضمائر ينبغى أن تحذر المرء إذا رأى متخاصمين فلا يقول إن أحدهما فاضل ذو حق والآخر ناقص ذو باطل ، فقد يكون كل منهما على حق أو على شيء من الحق أو على باطل ، وقد يكون الأكثر حقاً هو الأكثر حظاً من الفضيلة ، أو بالعكس قد يكون الأكثر حقاً هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، وقد يكون المناصر للحق والفضيلة بشعوره وعواطفه وبيانه هو أقلهما حظاً من الفضيلة ، ولكن النفوس قلما تتقصى كل هذه الأمور ولا أهون عندها من أن تحكم بغير علم وأن تورط ضمائرها فيما حكمت فيه بغير علم ، ومع هذا التورط فان الناس قد يعرفون أن جليسهم غدار مغتاب بذيء اللسان فلا يمنعهم يقينهم وعرفانهم من مؤاخاته ، وتتغابى ضمائرهم وتتعامى عن عيوبه وعن شره وقبح نفسه مادام مرجو النفع ، فضمائرهم تتورط فى الحكم بغير علم وتمتنع عن الحكم على علم

وفى الخليقة صنف آخر من الضمائر تكون أسقاماً عند أصحابها وتعظم عيوبهم فى أعينهم ، وهذا مرض نادر مثل مرض إيغال المرء فى فحص نفسه

وضمير صاحب الشعور النبيل له أن يطالب بألا يعاقب على نبل شعوره ولكن ليس له أن يطلب جزاء أو شكوراً ، اذا كان جزاؤه فى نبل شعوره واذا كانت مسرته فيه وشقاؤه فى غيره

عبد الرحمن شكرى

النيـــــل
أبرز « شخصية » فى العالم

عن مجلة « آمال » الفرنسية

إن المشكلة الحبشية مهما يكن حلها هى فى الحقيقة وليدة معضلة النيل وذيولها الخفية

سُئل مرّة الكولونيل لورنس : « أية شخصية فى العالم أكبر نفوذاً وأعظم شأناً ؟ » فأجاب هذا الرجل الغريب الذى يعد أكبر مخاطر فى عصرنا بكلمة واحدة هى : النيل

إن فى جواب لورنس ما يدعو لأول وهلة إلى الاستغراب لأنه أنزل النهر منزلة العاقلين وجعل منه « شخصية » بارزة ، ولكنه لم يخرج بتحديده وتعريفه عن اعتقاد قدماء المصريين فى النيل ، فضلاً عن أن للكونيل لورنس ولكل انكليزى سبباً يحمله على مجاراة الأقدمين فى اعتقادهم . وهذه الرواية التى تمثلها إيطاليا وانكلترا ويخشى أن تنتهى بمأساة عالمية ، أليس بطلها هذا النيل ، بل هذه الشخصية المقدسة التى عبدها الانسان قديماً ولا يزال يعبدها إلى اليوم ؟

ما فتئت بريطانيا العظمى منذ أنشأت امبراطوريتها الاستعمارية تطمع فى السيادة على البحار ، وفى التسلط على أهم المعابر البحرية حتى تم لها ذلك ؛ فنى قبضتها الآن كل المغاليق التى تؤمن مواصلاتها بتلك الامبراطورية المترامية الأطراف ، وأخصها الهند كبرى مستعمراتها وأغناها وأصعبها مراساً

أدركت انكلترا منذ حملة بونابرت على مصر أن تأمين طريق الهند يقضى ببسط نفوذها على بلاد الفراعنة دون أن يشاركها فيه أحد . ثم جاء فتح قنال السويس باعثاً آخر على تشبثها بهذا النفوذ . ومن تدبر سياسة انكلترا فى خلال قرن كامل رآها تدور كلها على محور واحد ، هو سلامة طريق الهند . فكل شبح تتخيل فيه ما يمس هذه السلامة عاجلاً أو آجلاً حاذرته وسعت إلى طمسه . هكذا فعلت وكذا تفعل الآن فى موقفها السلبى تجاه الغزوة الايطالية

إن الانكليز الذين يقبضون فى السويس وعدن على مغلاق

البحر الأحمر لم يزعجهم وجود إيطاليا فى اريتريا ، ولـكنهم وجفوا إذ رأوا موسوليني طامعاً فى البلاد التى ينبثق منها النيل الأزرق ، ولذلك نراهم يلجأون الى كل الوسائل لاحباط مساعى الرجل الذى يحلم باعادة الامبراطورية الرومانية

النيل واهب الخيرات

النيل اذن شخصية كبيرة كما عرفه الـكولونيل لورنس ، وقد يكون أكبر شخصية فى تاريخ الشعوب التى عمرت شواطئ البحر المتوسط . قال هيرودوت قديماً : « مصر هبة من هبات النيل » وهذه حقيقة لأن مصر قيمتها بنيلها ، ولولاه لـكانت مفازة قاحلة لاشأن لها ، فهى شقة من الأرض تمتد من النوبة الى الدلتا ويجرى فيها خط طويل دائم الاخضرار ، ولولا هذا المجرى الحيوى الذى ينساب فى أحشائها ويروى غليلها لمـا كان للانسان والنبات والحيوان حياة فيها ، لأنها لا تعرف المطر إلا نادراً

فى شهر يونيه ترتفع مياه النيـل فتفيض على الأراضى ناثرة عليها طبقة من الغرين الذى يعد من أحسن أنواع السماد . ويبلغ معظم فيضانه فى أول أسبوع من شهر أغسطس ، فترتفع مياهه إلى ستة أمتار ، ثم تتناقص تدريجاً فيأتى الفلاح ويشق وجه الأرض بسكته التاريخية التى تشابه سكة سلفه منذ ألوف السنين ويستغل خيراتها فى شهرى ابريل ويونيه

جعل النيل من مصر بلداً خصباً غنيا ، فلا غرو أن سبق المصريون الأقدمون شعوب الأرض فى ميادين الحضارة والثقافة .

كانت مصر موطناً لثمانى عشرة سلالة من الفراعنـة قبل ظهور موسى ، وكانت مسرحاً للحوادث التاريخية الـكبيرة قبـل أن تظهر للوجود أشور والفرس واليونان . ثم كانت مقصداً لطلاب العلم والفلسفة والثقافة من جميع الأنحاء ، فهى إذن كانت مهذبة الانسانية وحاملة نبراس المدنية فى العصور القديمة

ولـكن الى أى شىء يعزى تفوقها فى تلك العصور التى كانت شعوبها فى حالة البربرية ؟ كلمة واحدة تجيب على هذا السؤال ، وهى : النيل

لقد تعلم المصرى القديم كل شىء من نيله ، ولأجل نيله استنبط علم الفلك لـكى يحدد أوقات الفيضان ، واخترع التقويم والحساب ، وعلم الهندسة والمساحة ، وإنشاء الـسدود وشق الترع ، لـكى يستثمر النيل وينتفع بخـيراته . واننا لنجد ذكر النيل ورسومه فى أساطير مصر وفى كتب دياناتها ، وفى كل شأن من شؤونها ، فهو من مصر كالروح من الجسد

منبع النيل :

أين منبع هذا النهر العجيب واهب الخيرات ؟

كان فى اعتقاد الأقدمين أن مخرج النيل من جبال القمر ، وهذا الاعتقاد الذى يظهر لأول وهلة أنه وليد الخرافات مبنى على حقيقة عرفت يوم اكتشف منبعه الأصلى ، وهى أن أصول النيل تخرج من أعالى « أوجاموازى » ، وهذه اللفظة معناها « بلاد القمر » . وقد ظلت هذه الأصول مجهولة حتى أواسط القرن المـاضى ؛ وحاول كثيرون من الرحالة أن يهتدوا الى منبع النيـل فلم يظفروا بطائل ؛ فمحمد على أوفد ثلاث بعثات بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٤٢ ، فـكان نصيبها الاخفاق ؛ والفرنسى دارنو لم يصل الى أبعـد من الدرجة ٤٢ من العرض الشمالى ؛ والايطاليـان ميانى ودبونو ، والانكليزى بتريك ، والفرنسى لاجان ، لم يجاوزوا الدرجة الثلاثين . وظل منبع النيل سرا مجهولاً الى أن اكتشف الرحالة الانكليزى سبيك بحيرة تانجانيقا بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٥٩ فاذا هى مصدر النيل . وفى سنة ١٨٦٠ عاد برافقه جرانت فحدد بتدقيق مخرجه . فمنبع النيل الأبيض اذن هو بحيرة تانجانيقا العظيمة التى تزيد مساحتها على ٧٠ ألف كيلو متر مربع ، وموقعها يعلو عن سطح البحر نحو ١٣٠٠ متر

يتألف النيل الأبيض من شلالات ريبون ، ويسير قاطعاً المستنقعات والقفار والبحيرات ، وضاما اليه بعض الأنهر الصغيرة حتى يصل أرض الفراعنة ، فينساب بين سهولها وحيدا لا يعترضه شىء الى أن يصب فى البحر المتوسط . وطوله من منبعه الى مصبه ٦٢٨٠ كيلو مترا ، وهو أعرض من نهر الأمازون فى البرازيل ، وأطول من المسيسبى فى الولايات المتحدة

أما النيل الأزرق فمصدره بحيرة تانا فى الحبشة ، ويتصل بأخيه النيل الأبيض عند الخرطوم عاصمة السودان . وهو غزير المياه ولا سيما فى فصل الأمطار فى الحبشة . ومدته من يونيه الى أواخر أغسطس . ولولا النيل الأزرق لما أروى النيل الأبيض وحده أراضى السودان ومصر ، فهو اذن عامل كبير فى حياة تلك

البلاد الواسعة ؛ ولا يمكننا أن نتصور مبلغ نكبة مصر بفقدانها هذا المجرى الحيوى

الحبشة والنيل الأزرق

إن بلداً كمصر يتوقف عمرانها بل حياتها على نهر ، لا بدع أن يهتم أولو أمره قديماً وحديثاً بالوضع الذى يخرج منه هذا النهر ويراقبوه بعين يقظى . وكما يشغل اليوم بال الانكليز خطر تحويل مجرى النيل الأزرق إذا ما استولت على الحبشة دولة قوية ، كذلك كان يشغل أفكار الفراعنة منذ ألوف السنين مثل هذا الخطر ، فكانوا يحاولون دائماً التسلط على الحبشة التى كانوا يدعونها بلاد كوش لكى يأمنوه . ولم يكن الأحباش أنفسهم غافلين عن هذه الفكرة ولكنهم لم يستطيعوا إخراجها إلى حيز العمل الكبير لافتقارهم الى الأدوات اللازمة ، وحتى اليوم لا يزال ضعف الامبراطورية الحبشية وتأخرها فى مجالى الحضارة ضمانة لسلامة مجرى النيل الأزرق . أما إذا استولت على الحبشة دولة أوربية صناعية مثل ايطاليا ، فما يمنعها غداً إذا أرادت أن تستثمر — كما تشاء — الثروات الطبيعية فى بلاد مساحتها نحو ضعفى مساحة فرنسا أن تحول النيل الى غير مجراه الحالى ؟

إن هذه الفكرة وحدها كافية لأن ترعب انكلترا التى ترى فى تحقيقها خراب السودان ومصر ، ولا عجب إذا رأيناها فى موقف الجد والحزم ازاء المشكلة الحبشية التى هى فى الحقيقة معضلة النيل وذيولها الخفية ؟

(ترجمة العصبة)

بعض ما يذكر

بعـــد الزهاوى !

بقلم عبد الوهاب الأمين

أصبح « الزهاوى » الآن فى رحمة التاريخ الذى لا يرحم ! ودخلت « كان » الخالدة عليه ، فليس يشار اليه الا بها . وذهب فى عالم الشعر والخيال ، بعد أن كان بشعره مرآة للحوادث المهمة فى حياته وحياة عصره

ولقد كان فى حياته — وما أشد وقع « كان » هذه ! — يتمتع بعطف شديد من طبقة الأدباء ، بقدر ما كان مغضوباً عليه من الطبقات المتعصبة ، ولقد يكون من المناسب أن أذكر الآن أننى كنت ممن نقدوا شعر « الزهاوى » بشدة ، وقد ساقنى الى ذلك وقتئذ اختلاف عصرى عن عصره بطبيعة الحال وبعد شقة التفاهم بين عاطفة شيخ من أدباء القرن التاسع عشر وميول شاب فى القرن العشرين لم يطمئنه ويرضه أدب لا يعبر عن ميوله ؛ وكنت فى ذلك الحين أترقب التشجيعين المعنوى والأدبى بنقدى ذاك ، فما راعنى الا ذلك اللوم والعتاب الذى فجأنى من جماعة كثيرين كانوا مجمعين على أحقية النقد ، غير أن ذلك لم يمنعهم من أن يقابلوه بشىء غير قليل من التذمر ! حتى لقد بلغنى أن أحد من كان بيدهم الأمر حينئذ أشار الى رئيس تحرير الجريدة التى كنت أشتغل بها أن يطلب منى الكف عن نقد « الزهاوى » ! وكنت فى ذلك الوقت اشتغل بالصحافة ، فلم يسعنى الا النزول على ذلك الطلب ، وكففت عن الكتابة فى تلك الجريدة ، غير أنى تابعت نقده فى غيرها !

***

لقد أوخذ « الزهاوى » على بعض عقائد له جاهر بها فى حياته ، وعرف له فيها كثير من الاغراق والتطرف ، كما أنه كان يجد على تطرفه هذا كثيراً من المشجعين . وفى رأيى أن المؤرخ الذى سيكتب تاريخ حياة «الزهاوى» جدير به أن ينظر فى هذا الأمر بدقة عند كتابته حياة الفقيد ، فعلى فهم هذه الناحية من

حياة « الزهاوى » يتوقف تقدير أدبه ومدى تأثيره ، وما له وما عليه ، فلقد كان فقيدنا متطرفاً بالرغم منه . إذ أن ما اعتوره من الأمراض العصبية والأمراض الجسدية المزمنة ، جعله كذلك ؛ ومن هنا يدرك القارئ أن رأيه فى « اللذة والألم » الذى ناقشه فيه الأستاذ العقاد قبل سنين ، لم يكن مجرد اغراق منه كان يقصده للظهور بمظهر المخالف ، بل كان فى الحقيقة يمثل حالته النفسية والعصبية ، فقد كان يرى أن الألم فى الحياة أمر قائم بذاته ، وأن اللذة هى انعدام الألم ، وذلك طبيعى بالنسبة له ؛ فما كان يشعر باللذة فى حياته إلا فى الوقت الذى ينصرف فيه الألم الجسدى عنه !

وقد تنبه الأستاذ العقاد الى هذه الناحية عند التعقيب على تلك المناقشة (١) فأشار الى أنه لا ينكر أن « الزهاوى » يكابد من حياته ما له دخل كبير فى تمكين هذه العقيدة من نفسه

فالتطرف اذن هو الظاهرة التى تتركب عليها نفسية الزهاوى فى حياته الشخصية وحياته الأدبية ؛ واذا أدرك الناقد أو المؤرخ علة ذلك فى تكوينه وفى أعصابه ، فسيدرك بطبيعة الحال أن الاغراق والتطرف فى شعره قد يؤديان فى بعض الأحيان الى ظهوره بمظهر المنقلب على نفسه ، وعلى ذلك فليس فى شعر « الزهاوى » تناقض أو رجوع ، بل هى حالات نفسية جارفة تقلبت عليه فى وقتها فأنطقته بما خيل اليه أنه لا يتعارض وآراءه السابقة ، أو للتخلص من الضيق الذى سببته له بعض آرائه الجريئة ، كان يريد به تخفيف وطأة الطبقات المتعصبة عليه ؛ وفى هذه الناحية كان يبدو على شعره الشىء الكثير من التمحل الظاهر فيه حمله على نفسه ، وهنا لا يصح اعتبار مثل هذه الحالات ميزاناً للحكم على آثاره الأدبية والشعرية

* * *

يخطىء أشد الخطأ من يفاضل بين الزهاوى ومعاصريه من شعراء العراق ، فانه فضلاً عن سخافة فكرة المفاضلة لن تتوفر فيها الشروط الأساسية المطلوبة ، فانهم ليسوا « معاصريه » حقاً ولا يمتون اليه بصلة العصر . بل كان عمره المديد الملىء بخدمة الشعر والمساهمة فيه مثار الأشكال فى فهم شعره وحياته . فهو

(١) راجع فصل « اللذة والألم » فى كتاب مطالعات فى الكتب والحياة للاستاذ عباس محمود العقاد

من بقايا القرن التاسع عشر ، وليس من رجال القرن العشرين ، وما كان بوسعه أن يخرج على نفسه فى هذا الأمر طيلة حياته

واذا كانت خطوات البشرية فى عصورها السابقة للقرن التاسع عشر قريبة المدى من بعضها ، واذا كان التشابه والتقارب بين تلك العصور موجودين فهما فى هذا العصر قد بلغا آخر درجات التباعد . وقد مرت مئات السنين على البشرية فى « عصور الظلام » فما كان لتلك السنين المديدة أن تؤثر تأثير بضع سنوات فى نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين ، فيكاد هذان العصران يمثلان « سن الرشد » للبشرية والدهر ، ففيهما استيقظ الانسان وأحس وأدرك ، وظل كذلك يخطو بسرعة فائقة فى تقدمه حتى لقد كاد أن يكون من المشكل التفاهم بين الولد وأبيه ، كأن بضعة السنين التى بينهما قد أقامت بين تفاهمهما حواجز العصور !

من هنا يدرك القارئ السبب فى وجود هذا البعد الكبير بين نفسية « الزهاوى » وبين نفسية شباب اليوم (١) وسبب نقمتهم على أدبه ، ومع كل ذلك فقد أرضى « الزهاوى » كثيرا من نزعات الشباب وأفكاره ، ودافع عن تلك الرغبات دفاعاً شغل حياته الطويلة ووسمها بسمات لا يستطيع مؤرخه اهمالها ، فقد كان من مناصرى المرأة والسفور والتجدد ، وظل كذلك الى آخر حياته ، برغم ما جرته عليه هذه الأفكار من المتاعب له ، ومن هنا أيضاً تتضح لنا أهمية الرجل فى العصرين اللذين كان له نصيب الحياة فيهما ، ومدى تأثيره فى كليهما

* * *

وبعد فهل يحق لنا أن نتفاءل بهذه الحركة التى قام بها بعض المعجبين بأدب الزهاوى ؟ وهل لنا أن ننتظر منهم غير ما تعودنا انتظاره فى مثل هذه الحال من دراسة منتظمة لعصره وحياته وآثاره ، أم لا تزيد هذه الهيجة على نصب تمثال له فقط ؟

على كل حال ، اننا ننتظر ونأمل أن تتشكل لجنة من المعجبين بشعره من الأدباء لتدوين تاريخ حياته ، لأنه والحق يقال ، قد كون فى حياته فصلا كاملاً لحياة العراق فى ملتقى عصرين مهمين من حياة البشرية

(بغداد) **عبد الوهاب الامين**

(١) فى هذا الكلام نظر ؛ فان الزهاوى كان حريصاً على أن يساير شعره باطراد نزعات العصر . وقد جرؤ على أن يقول ما لم يقله شيخ ولا شاب . وللرسالة رأى فيه ستنشره عما قليل (الرسالة)

الحياة الأدبية فى فلسطين

للسيد محمد تقى الدين النبهانى

مدارس الأدب فى فلسطين مدرستان . مدرسة الشيوخ ومدرسة الشباب . ولا تستطيع وإن أجهدت نفسك أن تعثر بثالثة اللهم الا أثفية سفعاء . وهذا التقسيم قد يكون طبعياً بل قد يكون عاما لا يمتاز بهقطر ولاتستأثر به بلد ؛ غير أنه فى فلسطين غيره فى سواها ؛ فأدب الشيوخ فى أكثر الأقطار مطبوع بطابع المحافظة على القديم حتى لدى المجددين منهم ، وأدب الشباب كلف بالجديد حتى لدى المعتدلين من هؤلاء . واليك مصر زعيمة الأدب العربى تكاد تخضع لهذا المبدأ بالقوة إن لم يكن بالفعل ؛ فالزيات وطه حسين وهما من دعاة التجديد لا تقرأ لهما لغة ولا تمر بفكرة حتى تقرأ ما بين السطور المحافظة على التراث القديم . أما فلسطين فأدباؤها الشيوخ مشتجرون وأدباؤها الشباب منشقون ، ولا تستطيع أن تلمس فرجة تتاح لك منها فرصة التوفيق ، وإنه ليهون عليك أن تجد بعض الجامع بين الشيوخ والشباب ويعتاص عليك التوفيق بين رأى الشيوخ أو رأى الشباب . ولعل ذلك ناجم عن جرثومة هذا الأدب وأن نهضته أسست على التقليد من غير أن تكون ملكة الاستقلال والنقد بارزة تميز صائب الرأى وتنفث خطله

ترى طائفة من الشيوخ أن الأدب فى رفض هـذا النحو المألوف لدى العرب فى دراسة الأدب من إلمام بالقواعد ودراسة لجيد النثر ورصين الشعر ، وتذهب إلى أن كتب النحو وأسفار البلاغة من أمثال كتب الجرجانى والقزوينى حتى اليازجى وأسفار ابن هشام وابن مالك حتى الشرتونى والجارم يجب أن تحرق وينبغى أن تمحى ، وأن هذا الشعر وتلك الخطب التى قرضها أمثال حبيب ودبجها زملاء زياد لا يجوز أن نجعلها ثقاف أدب لعقول الأدباء ، وان لغة الصحف والكلام العادى الذى يكتب بعيداً عن الفن نائياً عن مقياس الأدب القديم هو التأدب الحق فكفى المرء أدباً أن يقرأ حتى لو أخطأ رفع المبتدأ ونصب الحال ما دام هو أو السامع قد فقه مغزى ما يريد . ويرضى من الكاتب أن يخط حروف الهجاء بكلمات تبين عن المعنى ولو مجملا حتى يضحى بعد مدة كل عربى قادراً أن يفهم الأدب اذا ما قدر أن يتلو الكلمة بعد معرفته ربط الحروف . وهذا رأى ينادى على نفسه بالخطل ويجعل القارىء فى شك من عقل صاحبه أو حسن نيته . ومن المؤسف أن نقول إن من القائلين به مفتشين فى المعارف وطائفة فى أيديها أمر اللغة العربية فى المدارس ، ولا نود ذكر الأسماء لأنا نخشى أن يظن ذلك منا هجاء

وتزعم طائفة أخرى أن الأدب فى التضلع من غرائب الكلم من مثل مبرنشق ومصمئل ، وأن من لم يحط علماً بذلك ويستوى على شعر تأبط شراً وذى الرمة ويستظهر خطب المأمون الجارفى ومقامات الحريرى لا يسمى أديبا

هذان رأيان من آراء الشيوخ وهما متناقضان ، فى أحدهما الهدم ، وفى الآخر الجمود ، لاتقوم بهما نهضة ، ولا يؤمل منهما إصلاح ، لولا أن هناك طائفة ترى وجوب السير فى نهج القديم والاستضاءة بضوء الحديث كرأى جمهرة الأدباء الذين أخذوا على عاتقهم حمل مشعل الأدب . وهذه الطائفة لها أثرها ولهـا أنصارها ، منهـا ذوو الطرابيش وأصحاب العمائم . غير أنه على غبطتنا بالطائفة الأخيرة ومقتنا للطائفة الأولى نقول : إن هذه الطائفة المعتـــدلة تقصر عملها وتحصر نهضتها فى غرف الدرس وحلقات السمر ، لم تخرج بعد ثمرة ولم تقم بمجهود ، وأن الاكثار انمـا هو لأولئك الهدامين ، يكتبون ويتحدثون عما يرون بمـا لا يكاد يصح أن يسمى لغة عربية ، ولا يكادون يقيمون لسانهم لحناً اذا ما تحدثوا دقيقة أو دقيقتين ، ولـكنهم على ذلك مكثرون وعاملون ما سمحت لهم المقادير

وطائفة الغريب منتجة غير أنه قليل ، وعلى قلته لايجد رواجا ولا ينفق الا فى سوق الراسخين

أما الشباب ففرقتان : فرقة كان موطن ثقافتها مصر ، وفرقة رضعت لبان الأدب فى فلسطين ولبنان ، وبذلك تباينت عقليتهما وانشقت آراؤهما

فالذين تثقفوا فى مصر يرون أن خير طريق لانهاض الأدب هى الطريق التى تسير فيها جمهرة أدباء مصر ، وهى أن تربية ملكة

الأدب فى دراسة نصوصه ونقد هذه النصوص وبحثها على المقياس الذى وضعه أولئك العلماء الذين أشفقوا على اللغـة أن تضيع وخشوا فسادها على ضوء ما يجد من الآراء الصائبـة وما يشرق من طرق البحث الأدبى القويمة . ولذلك تجد هؤلاء يتقلبون بين صفحات الأسفار ويأرقون لتحبير الرسائل والـكلمات وينتقلون بين المدن والدساكر ، يستملحون البيت من الشعر ، ويهشون للفقرة من النثر ، ويهتزون طرباً لرؤية كتاب حديث يلتهمونه التهاماً ، ثم يوسعونه نقداً ، ويفتقون ما يصح من رأى حصيف . وهؤلاء هم الذين يجاهدون فى النهضة ويضعون أنفسهم حراس الأدب . يحيطون علماً بسيره فى سائر الأقطار ويستلئمون لرد غارة دعى ، وصد هجمة متطفل على الأدب يكيد له . ومهما لاقوا من عنت ووجدوا من قسوة ، لا يأبهوا لمـا يكون حتى من أشد الشظف ، ويؤيدهم فى ذلك جمهرة من إخوانهم الذين تثقفوا فى لبنان ، وإن كان يكون بينهم نزر الخلاف

أما الفرقة الأخرى فهى تقصر الأدب على رقيق الغزل وبارع الخيال فى الـكلم ، وما يدبج من مقالات الصحف السيارة . حتى ليعدون رئيس تحرير جريدة أديباً إذا ما أنشأ كلمة فى علاج شؤون البلاد ؛ وهؤلاء يريحون أنفسهم من عناء الدرس ، اللهم إلا فى كتاب حديث أو جريدة يومية ، أو مجلة فكاهية ، وجل مجهودهم قصيدة غزلية أو مقالة اجتماعية ينشرونها فى نهر جريدة ما . وهؤلاء لا نشك فى عقائهم ولا نرتاب فى نيتهم ، وإنمـا نفند رأيهم وندعى أن الميل الى الراحة ومتابعة الأهواء والجرى وراء غرائزهم هو الذى حدا بهم أن يسيروا فى هذا النحو ، وأن يعتنقوا هذا المبدأ ، ولعلهم بعد يؤوبون إلى الحق أثناء سيرهم فى قافلة النهضة السائرة ، وانه وان كثر أنصارهم باتخاذهم أصحاب الصحف أصدقاء ، وباهتبالهم فرصة هذه الصداقة لجعلها بوقاً لهم يرضون به غريزتهم وينشرون رأيهم ؛ فهم أمام قوة الأدب الصحيح يضعفون ويضمحل معين أدبهم فانه سينضب ، وحينذاك يعلمون حق العلم انهم كانوا فى وادى الضلال يعمهون ، ومن ملح أجاج كانوا يشربون ويسقون

ولا يعجبن القارىء من عرض هذه الصورة ولا يدهش لهذا الاضطراب فى الحياة الأدبية فان المقادير تضافرت على خلق هذا الاضطراب ، وإن اختلاف السياسة خلق هذا التباين . ففلسطين كان أدبها معدوماً وكان أدباؤها غير مخلوقين قبل سنين ، فالأتراك كانوا يتآمرون على الأدب العربى حتى فى مصر ، فما بالكم فى فلسطين ؟ والأزهر كان حرباً على الأدب ذاك الوقت وخاصة مع الأغراب ، وجامعات مصر كانت تقفل أمام الفلسطينيين ، والحرب العامة كان لهـا أكبر الأثر ففتحت البلاد عينها على بقية من القـدماء وجمهرة من الدخلاء ثم أصحت فلسطين منتدياً عليهـا أومستعمرة ، وقام على شؤون التأديب غرباء عن الأدب ، فكان ذلك الركود ووجد ذاك السكون فى أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجرى إلى أن فتحت جامعات مصر على مصراعيها لأبناء فلسطين واتجه الأزهر يعنى بالأدب ليتاح له تأدية رسالته ، وحضنت لبنان أبناء هذا البلد فرجعت جمهرة من الشباب اصطدمت بالقدماء واصطدم بعضهم ببعض فكان هذا الاضطراب وكانت هذه الحياة الأدبية المضطربة التى أظهرنا لك صورة مصغرة ذاتية من الحقيقة وإن كانت المقادير لم تسمح بأن تكون هذه الصورة أقرب إلى الحقيقة وأوضح ممـا قدمنا

. . . بيد أن هذا الاضطراب والاحتكاك يلمع ببرق أمل فى النهضة الأدبية ويبشر بانتظام حياة أدبية يجهد الشباب لايجادها ويستميلون معتدلى الشيوخ وأنضجهم آراء ، وما هى إلا لمحة حتى تتغير الحياة غير الحياة وتزهر رياض الأدب فى هذه البلاد العربية وتؤتى أكلها ثمراً شهياً

(حيفا) **محمد تقى الدين النبهانى**

شكوى الى الله

وداع . . .

هذه خطبة معلم فرقوا بينه وبين أولاده فودعهم بها ووصاهم وبكاهم ، وإنى لآسف أن يكون فى صاحبنا المعلم الأديب هذا الضعف وهو يدعو إلى أدب القوة ، ولكن ما ذا يصنع ؟ أليس له قلب ؟ أليس بانسان ؟ . . .

أولادى !

انتظروا ! لا تخرجوا كتبكم ، ولا تفتحوا دفاتركم ، فما جئت لألقى عليكم درساً ، وإنما جئت لأودعكم . إن الوداع صعب يا أولادى لأنه أول الفراق ، وما آلام الدنيا كلها إلا ألوان من الفراق : فالموت فراق الحياة ، والثكل فراق الولد ، والغربة فراق الوطن ، والفقر فراق المال ، والمرض فراق الصحة . . .

إن الوداع صعب ولو الى الغد ، فكيف إن كان المودَّع صديقاً عزيزاً ، فكيف إن كان ولداً ، فكيف إن كانوا أولاداً ؟ .

أنتم أولادى ، أولادى حقيقة لا أقولها مجاملة ولا رياء ، ولا أسوقها كأنها كلمة تقال ، ولكن تنطق بها كل جارحة فى ، وأحسها من أعماق قلبى !

ولم لا ؟ ألستم تحبوننى وأحبكم ؟ ألم أفكر فيكم دائماً وأخاف عليكم ؟ ألم ترونى آلم إذا تألم أحدكم ، وأثور إذا تعدى أحد عليكم ؟ ألم أفتح لكم قلبى حتى اطمأننتم إلى وأنستم بى ، وخرقتم حجاب الخوف الذى كان بينى وبينكم ، كما يكون بين كل معلم وتلاميذه ، وغدوتم تدعوننى لأشارككم فى ألعابكم ، وتقصون على أخباركم وتبثوننى أحزانكم ، وتنبئوننى بأسراركم ، وتشكون الى مايصيبكم من آبائكم وأهليكم ؟ فأى صلة بين الآباء والأبناء أوثق من هذه الصلة ، وأى سبب أقوى من هذا السبب ؟

أنتم أولادى . فهل رأيتم أباً يودّع أولاده الوداع الأخير ثم يملك نفسه أن تسيل من عينيه ؟ لقد شغلتم نفسى زماناً ، وأخذتم علىّ مسالكى فى الحياة ، فلا أرى غيركم ولا أفكر إلا فيكم ، وأقنع بصداقتكم هذه الخالصة المتعبة المرهقة ، عن الصداقة الكاذبة ، والود المدخول

فكيف أقدر أن أملك نفسى وأنا أقوم بينكم لألقى عليكم كلماتى الأخيرة ، ثم أمضى لطيتى لا أدرى أأراكم بعد اليوم أم لا أراكم بعد أبداً ؟ . . .

أما أنتم فاملكوا أنفسكم — لا تحزنوا ولا تأسفوا ولا تبكوا لأنى علمتكم كيف تكونون فى طفولتكم أكثر منا فى شبابنا رجولة وصبرا — ونشأتكم على القوة التى فقدناها ، والبعد عن العاطفة التى ربينا عليها ، وانكار الألم الذى لا نزال نهرب منه ، والمغامرة التى نكرهها ونجهلها لأرى صبركم فى مثل هذا اليوم

انكم الآن تجتمعون حولى ، ولكنكم ستتفرقون فى المستقبل ، وستنتثرون على درجات السلم الاجتماعى نثراً ، وسيكون منكم الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والتاجر والصانع ، والموظف الكبير ، والمدير والوزير . ولكن قلبى سيتبعكم ، وحياتى ستمتد فيكم ، ومبادئى ستبقى فى قلوبكم ، لا تستطيعون أن تتناسوها ، وكلماتى سترن فى آذانكم لا تقدرون أن تتغافلوا عنها ، وستسمعونها تدعوكم باسم الواجب فى ساعات الهوى ، وباسم الحق فى جولة الباطل ، وباسم الفضيلة فى غمار اللذة . فطوبى لمن لبّى وسمع واستجاب ، وويل لمن نسى وأنكر وأعرض واستكبر !

إننى لقنتكم مبادئ الحق والفضيلة ولكنكم ستجدون فى تطبيقها عناء كبيراً ؛ ستجدون أول خصومها معلميكم فى المدرسة وأهلكم فى البيت ورفاقكم فى الطريق . فالسعيد السعيد من ثبت على الحق ، وأوذى فى سبيله ؛ والبطل من درأ بصدره السهام عن أمته ، وأطفأ بدمه النار التى تحرق وطنه . ان فى إمتكم طاعوناً أخلاقياً مروعا أصيبت به منذ خمسمائة سنة فذلت واستكانت ، وفقدت عزتها وصبرها وقوتها ، وقد جاء الوقت الذى تبرأ فيه الأمة . انها لن تبرأ إلا على أيديكم . . .

لقد دللتكم على الطريق ، ووضعت فى أيديكم مفتاح النجاح ، فعلمتكم فضائلى كلها مع ما عرفت من فضائل ، وجنبتكم نقائصى كلها مع ما عرفت من نقائص ، فاحترمتكم لتحترمونى ، وأخطأت أمامكم لتردونى ، ورجعت عن خطئى لتتعلموا منى ، وأنصفتكم من نفسى لتنصفوا الناس من نفوسكم ، وعلمتكم معارضتى إذا جرت لتتعلموا المعارضة لكل جائر ، ولم آت

فى ذلك بدعا . فهذه مبادئ الاسلام الذى علمتكم اتباع سبيله ، والوقوف عند أمره ونهيه والفخر به ، والجهر باتباع شعائره ، وربيتكم على الطاعة فى غير ذل ، والعزة فى غير كبر ، والتعاون على الخير ، والثبات على الحق ، والقوة فى غير ظلم ، والنظام الكامل من غير أن يفقدكم النظام شخصياتكم واستقلالكم

كنت أذكر ما كنت أستاء منه فى المدرسة مما كان يصنع معنا معلمنا ، فلا أصنع معكم منه شيئا : كنا نفر من المدرسة لأننا لا نجد فيها إلا جباراً عاتيا ، عبوس الوجه ، قوى الصوت ، بذىء الكلمات ، فجعلتكم تحبون المدرسة لأنكم تلقون فيها أباً باسماً شفيقاً يحبكم ويشفق عليكم ، ويحرص على رضاكم كما يحرص على نفعكم

وكنا نكره الدرس لأننا نجده شيئاً غريبا ، وطلاسم لا نفهمها ولا ندرك صلتها بالحياة ، ونعاقب على إهماله ، ونجازى على الخطأ فيه ، فجعلتكم تحبون الدرس لأنكم ترونه سهلاً سائغا ، تدركون صلته بحياتكم ، وفائدته لكم ، وتحفظونه لأنه لازم ومفيد لا خوفاً من العقاب ولا هرباً من الجزاء

وكنا ننتظر المساء لننجو من المدرسة ، لأننا نسجن فيها سجنا ، لا نستطيع أن نميل أو نتلفت أو نتكلم ، ولا نسمع من الأستاذ إلا عبارة الدرس المبهمة وألفاظ الشتائم المؤلمة . فجعلتكم تكرهون المساء لأنه يفصلكم عن المدرسة التى تقولون فيها ما شئتم من طيب القول ، وتفعلون ما أردتم من صالح العمل ، وتقرأون مازلتم نشيطين للقراءة ، فاذا مللتم من الدرس سمعتم قصة لطيفة ، ونكتة حلوة ، هى أيضاً درس من الدروس ، ووجدتمونى أحادثكم كما أحادث الرجال لا الأطفال . كنا نشعر بأننا أذلاء فى المدرسة لأننا لا نقدر أن ندافع عن حقنا ، أو نطالب بما لنا ، وإذا قلنا كلمة فالعصا نازلة على رءوسنا ، أو رددنا على المعلم لفظة ، فالبلاء مستقر على عواتقنا ، فجعلتكم أعزة أحرارا ، تدافعون عن حقكم ، وتطالبون بما لكم ، ولكن بأدب واحترام ، واتباع لقوانين المجتمع وأنظمة المدرسة ...

* * *

أتذكرون يوم جئتكم كيف كان أكثركم يأتى إلى المدرسة بادية أفخاذه ، مرجلاً شعره ، فى جيبه مشطه ومرآته ، وكتّته (بيريه) على رأسه . تفخرون برقتكم ، وتمتزون بجمالكم ، وتتخلعون فى مشيتكم ، ولا تجدون من معلميكم إلا إقرار ما تفعلون ، واستحسان ما تأتون ، لا تربطكم بالاسلام إلا رابطة الاسم ، ولا بالعروبة إلا صلة الجنسية ، ولا تعرفون من تاريخكم ما تعرفون من تاريخ الحثّيين والآراميين الذى قرأتموه مفصلاً قبل أن تدرسوا سيرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقبل أن تعلموا من هو أبو بكر ، وقبل أن تسمعوا باسم معاوية . فعلمتكم أن فخر الرجل بقوته وعلمه ، واعتزازه بدينه ولغته . فاشتدت أعصابكم ، وقويت نفوسكم ، وتنبهت عزائمكم وصرتم تمشون كالأسود ، وتلعبون كالعفاريت . وتطالعون كالعلماء وتفكرون كالفلاسفة ، وتراقبون الله كالصديقين ، وصرتم وأنتم فى هذه السن تهيئون محاضرة فى عشرين صفحة عن عمرو بن العاص ، أو عبد الملك ، أو عبد الرحمن الناصر ، وسمعتم أن فى الدنيا علوماً اسلامية ، واستقر فى نفوسكم أن هذه العلوم وهذه الحضارة وهذا المجد ، لا بد لها من بعث كالبعث الأوربى (الرينسانس)

ولكنكم لا تستطيعون يا أولادى أن تفهموا التضحية التى قدمتها من أجلكم . لأنكم لم تعرفوا قبلى هذا الطراز من المعلمين ، فحسبى أن أخبركم أننى أشتغل بالأدب . أعنى أن لى نفساً تشعر وتحس ، وتألم وتسر ، وتغضب وترضى ، وتثور وتهدأ ، وتأمل وتقنط ، وأن لى غاية فى الحياة أكبر من هذه الوظيفة . وأننى أهم بأشياء غير صفّارة المناوب ، وعصا التأديب ، وحفظ النكات الباردة لتقطيع الوقت بها ، ولف رجل على رجل فى عظمة جوفاء لانتظار الدرس ...

ذلك أننى أغدو إلى المدرسة كل يوم وفى نفسى عشرات من الصور والأفكار ، أبنى منها هيا كل فخمة لآثارى الأدبية القيمة التى لم أكتب منها شيئاً بعد فاذا بلغت المدرسة ونشقت هذا الهواء الملىء بجراثيم البلادة والخمول ، طار من رأسى كل شىء ، وأحسست أنى غدوت حقيقة معلماً أوليا

أجل . لقد ضحيت من أجلكم بفكرى ونفسى . . فخسرتهما من أجلكم ، وهأنذا أخسركم أنتم أيضاً

إنكم لا تعلمون أىّ فراغ سيدع فى نفسى فراقكم ،

وتحسبون معلمكم واحداً من هؤلاء البشر الآليين الذين يذهبون ويجيئون ويعملون ويتركون ، ولكن بلا قلوب ، فسأقص عليكم قصة وقعت لى منذ أسبوع :

كان اليوم عطلة وكنت أرقبه من زمن بعيد لأستريح فيه من هذا العناء الذى هدّنى هدّاً وطمس بصيرتى ، وبلغ بى إلى الحضيض الفكرى ، فلما أصبحت عمدت إلى المطالعة فلم أفهم شيئاً ، ووجدت شيئاً يدفعنى إلى الخروج ، فارتديت ثيابى وأنا لا أدرى أين أقصد ، فاذا أنا أمشى فى الطرقات التى أمشى فيها كل يوم . وإذا رجلاى تقودانني إلى المرجة حيث ركبت السيارة إلى حىّ السفح (المهاجرين)[1] إلى باب المدرسة . هنالك انتبهت ، وعدت إلى نفسى ، فاذا أنا لم أقدر أن أعيش يوماً واحداً بعيداً عنكم ، وإذا صوركم وبسماتكم الحلوة ، وشيطنتكم البريئة ، وصداقتكم الخالصة ، وأصابعكم الممدودة للسؤال قيد بصرى حيثما ذهبت !

ولكن لا عليكم منى يا أبنائى ، لا تفكروا فىّ ولا تحملوا همّى ، بل فكروا دائماً فى مبادئ علمتكم إياها ، واذكروا فى المستقبل أنى كنت أستاذكم ، وأنكم أحببتمونى وأحببتكم ، ولا تحقدوا علىّ أنى كنت أحياناً أقسو عليكم أو أعاقبكم ، فانما كان ذلك لفائدتكم

وبعد . فقوموا يا أولادى ، ودّعوا أباكم الذى لن تلقوه بعد اليوم ... .

* * *

وخرج صاحبى من المدرسة ، مهدود الجسم ، خائر القوى ، فألقى عليها النظرة الأخيرة . فرآها من خلال دموعه ، مشرقة بهية ، كأنها ماسة تلمع فى شعاع الشمس ، ثم ولّى ... يفكر تفكيراً مضطرباً

* * *

هذه هى حياة المعلم ؛ يغرس غصون الحب فى قلبه فتمزقه بجذورها ، فاذا أزهرت جاءوا فنزعوها من قلبه ، فمزقوه مرة ثانية بنزعها : يأخذ المعلم أولاداً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، فلا يزال يجهد فيهم ، ليفهم طبائعهم ، ويألفهم ويحبهم ، ويقوّم اعوجاجهم ويصلح فاسدهم ، حتى إذا أثمر الحب الفائدة وأتى العطف بالمنفعة ، جاء ولاة الأمور فقطعوا بجرّة قلم واحدة هذه الأسباب كلها . وفرقوا بنقطة من حبر بين الأب وأولاده ، لا لشىء . بل لوشاية سافلة أو مؤامرة دنيئة ، أو لاخلاء مكانه ليتبوّأه بعض الملتمسين من ذوى الوساطات

وانطلق صاحبنا يهمس فى أذن نفسه :

إنى أشعر بالانحطاط والضعف ، وأحسّ كأنى شمعة قد انطفأت ، لم يكف أنهم أضاعونى وألقونى فى هذا الطرق حتى جعلونى أسبح فيه ، ثم أغوص إلى أعماقه ، بينما يمرح الأدعياء واللصوص بالعيون الصافية ويقطفون وردها وزهرها !

لم يبق لى أمل ... لقد سقطت فى المعركة قبل أن أنال ظفراً ، لقد بعت نفسى ومستقبلى وآمالى بتسعة جنيهات فى الشهر ثمناً لخبز عيالى ... أفكان حراماً أن أجدها من غير هذا الطريق ، ألم يكن بد من أن أموت لأعيش ؟ ..

استغفرك اللهم . فلا اعتراض ولا انتقاد ، ولكنما هى شكوى . أفيخسر المرء ماله فيشكو ، ويفقد حبيبه فيبكى ، ويرى آماله تنهار أمام عينيه ونفسه تذوب وحياته تنضب ومواهبه تذوى ولا يقول شيئاً ؟

إنى أشكو ، ولكن إلى الله ؛ فليس فى الناس من يشكى اليه !

(دمشق) (ع)

(١) كذلك كانت تسمى الصالحية قديماً

الألم ...

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

لست أسطيع أن أغير طبعى
يخلق الطبع مكرهاً يوم تخلق

أَنَا فى عُزْلَتِى يُطِيفُ بِىَ الرُّعْـ   ـبُ فَأَبْكِى مِنْ طُولِ شَجْوِى وَأَفْرَق
تَعْتَرِينِى الهُمُومُ فالطَّرْفُ حَيْرَا   نُ مُنَدًّى مِنَ الدُّمُوعِ مُؤَرَّق
وَجَنَانِى وَلْهَانُ يُرْمِضُهُ الحُـــبُّ   وَيَذْكُو بِهِ الجَوَى إِنْ تَشَوَّق
تَتَرَاءَى لِىَ الحيـــاةُ قَتَامًا   ما بِهَا مَسْرَبٌ يَبِينُ فَيُطْرَق
يَلُوحُ الوُجُودُ قَفْرًا يَبَابًا   عَجَّ فى سَاحِهِ العَفَاءُ وَأَطْبَقْ
صُوَرٌ مِنْ كَآبَتِى لَيْسَ تُمْحَى   أَنَا مِنْهَا مُشَتَّتُ النَّفْسِ مُصْعَقْ
مِنْ شُجُونِى أَنِّى أَرَى الوَهْمَ يَحْيَا   وَلَقَدْ صَاغَهُ خَيَالِى وَنَمَّقْ
لِى عَذَابُ اثْنَتَيْنِ نَفْسِى التى تَشْـ   ـقَى وَنَفْسِى التى أُحِبُّ وَأَعْشَقْ
عِشْتُ مِنْ طُولِ حَسْرَتِى أَتَشَكَّى   مِثْلَمَا يَشْتَكِى الحَمَامُ المُطَوَّق
ضَاعَ عُمْرِى كما تَضِيعُ اليَنَابِيـ   ـعُ وَتَخْفَى أَمْوَاهُهَا وَتُغَلَّقْ
وَانطَوَى مِثْلَمَا تَمُرُّ الضَّبَابَا   تُ وَيَفْنَى خَيَالُهَا وَيُمَزَّق

* * *

أَيُّهَا اللَّائِمِى أَتَلْحُو المَقَادِيـ   ـرَ وَتَهْجُو الدَّهْرَ الذى لَيْسَ يَرْفَقْ
هُوَ جُرْحِى عَرَفْتُ كَيْفَ أُدَارِيـ   ـهِ وَأَحْنُو عَلَيْهِ عُمْرِى وَأَشْفَقْ
لَسْتُ أَسْطِيعُ أَنْ أُغَيِّرَ طَبْعِى   يُخْلَقُ الطَّبْعُ مُكْرَهًا يَوْمَ تُخْلَقْ
أَنَا قِيثَارَةٌ تَنُوحُ عَلَى الدَّهْـ   ـرِ وَدَمْعٌ عَلَى المَدَى يَتَرَقْرَق
أَنَا لَحْنٌ مُضَرَّجٌ بالمَآسِى   كَادَتِ النَّفْسُ مِنْ تَشَكِّيهِ تَزْهَقْ
هُوَ فى الصَّدْرِ لَاعِجٌ يَتَنَزَّى   وَهْوَ فى الفِكْرِ جَدْوَلٌ يَتَدَفَّقْ

* * *

يَا رَجَائِى يَا بَسْمَةَ الزَّهْرِ النَّضْـ   ـرِ وَيَا رَوْعَةَ النَّشِيدِ المُرَقَّقْ
أَنْتَ دُنْيَاىَ أَسْتَرِيحُ إِلَيْهَا   كُلَّمَا طَافَ بِى الشَّقَاءُ وَأَحْدَق
طَيْفُكَ الحُلْوُ زَارَنِى فى ذُهُولِى   فَارْتَوَتْ مُهْجَتِى وَعُمْرِىَ أَوْرَق
وَتَطَلَّعْتُ لِلْخُلُودِ أُنَاجِى   مَلَكًا فى مَعَارِجِ الغَيْبِ حَلَّقْ
الأَسَى دَمْعَةُ الحَنَانِ عَلَى الأَرْ   ضِ وَكَنْزٌ مِنَ المَرَاحِمِ مُطْلَقْ
تَتَسَامَى الأَرْوَاحُ فيهِ إِلَى اللَّـ   ـهِ وَتَنْدَى مِنَ الطُّيُوبِ وَتَعْبَقْ
البَلَاغَاتُ سَطْعَةٌ مِنْ سَنَاهُ   وَالفَصَاحَاتُ نَفْحَةٌ مِنْهُ تُنْشَقْ
وَالغَمَامَاتُ رَجْفَةٌ مِنْ رُوَاهُ   وَالخِضَمَّاتُ قَطْرَةٌ مِنْهُ تُهْرَق
نَهَرٌ لِلْبُكَاءِ سَالَ عَلَى السُّحْـ   ـبِ وَوَشَّى الأُفْقَ البَعِيدَ وَزَوَّق
تَسْتَحِمُّ النُّفُوسُ فيهِ مِنَ الإِثْـ   ـمِ وَتَنْقَى مِنَ العيوبِ وَتَأْلَقْ
يَدْرُجُ الحُبُّ فى حِمَاهُ عَنِيفًا   نَاصِعًا كالضِّيَاءِ إِنْ هُوَ أَشْرَق
كُلُّ عَهْدٍ لم يَنْتَظِمْهُ مُضَاعٌ   كُلُّ وُدٍّ لم يَعْتَمِدْهُ مُفَرَّق

أنور العطار

عبرة الموت

جميل صدقى الزهاوى

بقلم عبد السلام رستم

يأيها المسلوب من أنسه   مصفد الجسم الى رمسه
وتارك الدنيـــا على حالها   لم تصدق العائف[1] فى حدسه
فى الموت لو فكر مستعبر   فيما يصيب الحى من مسه
تشابه النـــاعم فى لهوه   بالعابد الطوّاف فى حبسه
وبات من يجمع أمواله   كالمعدم المحروم فى بؤسه
تلاحق الآتى بمن قبله   وتابع اليوم خطى أمسه
فما ينال المرء من حظه   الا بريق النور من شمسه
يشب مشغوفاً باغراســـه   وليس يدرى منتهى غرسه
ويخطب الدنيا ، وقد شاقه   ما يفتن الناظر من عرسه
ويرشف الكأس على نهله   والموت — لو يعلم — فى كأسه

* * *

يا شاعراً ظل مدى عمره   فى حيرة المشدوه أو يأسه
يسائل المجهول عن أمره   وينظم الشعر صدى نفسه
ما ذا أفاد الحس فى عالم   لا يدرك المنىّ من حسه
الكون ما انفك بأوزاره   يغترف الأحياء من رجسه

---

(١) العائف : المتكهن بالطير

قد غلب الطبع على خلقهم ومرجع الشىء إلى جنسه
وكلهم فى عيشه ناسج ثوباً يقيم الدهر فى لبسه
والموت من خلفهم دائب يسدد النبل الى نكسه
كم عجز الباحث عن كنهه وإن أطال الفكر فى درسه
فدونك الحق الذى تبتغى وخل عنك الروح فى قدسه

(القاهرة) عبد السلام رستم

سهرة ابريل

الشاعر والربيع

بقلم محمد رشاد راضى

الشاعر :

طير الربيع أعدت ذكرى بلبلى
أأراه فى فرح الربيع المقبل

قذف الحسام فكان مقبضه على شفتى وآخر حدّه فى مقتلى
ومضى كما يمضى السحاب كأنه ظِلٌّ الغريب وهدأة المتأمل
أجتاز أنواء العواصف تائها ويروح يرفل فى الغلائل والحلى
الأرجوان العذب فى وجناته ظللته بخيـالىَ المتهلل
رقرقت فى عينيه بارق أنجم يهدى فكان لحيرتى كمضلل
حلو كما احلولت طفولة ناهد طلق طلاقة بسمة لمقبل
شرب السماء جميعها بعيونه ورمى بقيتها لماء الجدول
يمشى فيخضرُّ الثرى من خطوه وتذوب أحجار الجديب الممحل

الربيع :

نهب الكون ابتسامى إنه فى كل ثغر
وبجومى البيض رفّت فى الثنايا مثل درّ
وكراكىّ وطيرى رفرفت فى كل صدر
الصبا الصارخ يسرى فى الدم القانى ويجرى

* * *

إن وردى يا أميرى صبغةٌ من شفتيها
وغديرى عبرات هربت من مقلتيها
وحياة الحب والفتنة رسم من يديها
أوحت الدنيا إلى اللـه فأهداها اليها ... !

* * *

هى حلم لا يراه المرء حتى فى الكرى
هى كأس دون خمر هى خمر قد جرى
هى أحيتنى فجئت اليوم كى أحيي الورى
إن نور الشمس من أعينها السود سرى

* * *

جمع الخالق حسن الأرض فيها يا هزار
فلك الدنيا تراه كلما دارت يُدار
هى فى النور ظلام وهى فى الليل نهار
هى ماء أيها الشاعر كم يحرق نار !

* * *

أرسلتنى اليوم يا صداح كى آتى إليكا
أرسلتنى بدلا منها لأروى شفتيكا
كلما ترنو إلى مرآتها أبدو لديكا ... !!
إننى لوحتها تعرضها اليوم عليكا
إرسم اللوحة واحفرها على لوح الخلودْ
هأنا صورتها العذراء أنوار الوجود
خذ من الصورة أعلى الفن والحسن الفريد
وأتم الرسم منها فهى يوماً ستعود ... !

الشاعر :

كلما سرت يا ربيع النور أتهادى من جدول لغدير
كخيال يطوف بين القبور خلت أن الشذى ومرج الزهور
هو للكون ليس لى أنا وحدى
هو ظلٌّ منها يزيد شجونى إن كأس السراب لا ترويني
ولهذا يلجُّ عصف جنونى أنا أبنى الدنيا وإن تك دونى
لا بساطا يناله كل فرد ......!
أنا أبنى عيناً ترى بعيونى أنا أبنى قلباً يدين بديني
أنا أبنى بلهفة وجنون أن تكون الحياة ملك يمينى
ما انتفاعى بالطيف والطيف عندى ..؟!

استدراك

ذكر سهواً فى مقال الأستاذ عبد الحميد العبادى المنشور بالعدد الممتاز أن زوج زينب بنت النبى (ص) هو سعد بن الربيع ، والصحيح أنه « أبو العاص بن الربيع »

القصص

دراسات من اسخيلوس

ليلة فى الفردوس (١)

« وإلى الأبد فى جهنم ! »

آخرة المتضرعات

للأستاذ دريني خشبة

خلاصة الدرامة الأولى

كان لأيجبتوس ، أمير مصر السفلى ، خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، وكان الزواج من بنات العم فى ذلك الزمن محرما بل كان يعد نوعاً من الزنى ؛ وبالرغم من هذا أراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه من بنات أخيه ، وكان هذا الأخ ، دانوس ، قد رأى فى منامه أن أحد أزواج بناته يذبحه ، فلما ذهب إلى الكهنة يستفتيهم فى هذا أكدوا له صحة الرؤيا ، ولذلك رفض تزويج بناته ، وهرب بهن على فلك إلى آرجوس ، وهناك ، فى حرم الآلهة ، لقى يلاسجوس ملك آرجوس ، وتقدمت كبرى بناته إلى الملك فحدثته عن منشئها وما تمت به من وشائج القربى إلى آرجوس عن طريق يو حبيبة سيد الأولمب وصفيته ، وتضرعت إلى الملك أن يحميها واخواتها وأباها من ملك مصر ، وألا يردهم عليه أبدا ؛ ولم يستطع الملك أن يعدها حتى يستشير شعبه ، فهددت بأن تشنق نفسها ، هى وأخواتها فى جذوع الآلهة إن لم يفعل — وذهب الملك يحتال ليكسب أصوات شعبه وتأييده لقضيتهن — ولكن ظهرت سفينة فى البحر فى هذه الآونة ، فاذا هى مركب مصرى ، وإذا فيه جند وقائد أتوا يستردون البنات وأباهم قسراً ... وانقض الجنود على البنات ، وطفقوا يجرونهن من شعورهن لينزلوهن إلى السفية ، وكادوا يفعلون ، لولا عودة ملك آرجوس فى آخر لحظة ، فحماهن من القائد المصرى ، واحتدم الجدال بين الملك والقائد ، حتى عد القائد أن ملك آرجوس ، بمخاشنته التى أبداها قد أعلن الحرب على مصر ... فعاد أدراجه إلى السفينة ليبلغ مولاه ...... أما البنات فنزلن فى حصن آرجوس مكرمات آمنات

— ١ —

فى فجر يوم من أيام الصيف ، انشق الأبيض المتوسط عند ساحل آرجوس ، عن أسطول لجب ما عتم أن انتشرت سفائنه فوق الماء كأنها الدّبى ، وخَشْخَشَتْ خلال أواذيّه كأنها الأساود ، ثم نفثت سمومها فوق الشاطئ جنوداً من شياطين فرعون ، مستلئمين فى الدروع ، مقنعين فى الحديد ، يلاعبون السمهريات ، ويرهفون الرقاق البيض !

وكانت آرجوس الخالدة نائمة حالمة ، غارة فى غفوة الفجر ؛ وكان الأرجيف الأشقياء غارّين كذلك ، تداعب أجفانهم الوسنى أطياف الآلهة ، وتمرح فى قلوبهم ومضات من السعادة يكاد الأولمب يمضى بها ... حين ينبلج الصباح اللماح عن فوهة بركان ... ما تلبث حتى تكون وهدة من وهاد جهنم ! ...

— ٢ —

وأطل الحراس فى شعاف الجبل ، فبهتوا ! ! وزاغت أبصارهم ! ... وأوقدوا النيران ! ... واستيقظت آرجوس عجلى ، تنظر الى الموت الفاجئ يتربص بها ، ويكاد ينقض عليها ! ......

« المصريون ! المصريون ! المصريون ! .... »

وذهبت الصيحة فى أرجاء المدينة تهز قلوب الأبطال ، وتداعب ألباب الصناديد ، وتزلزل فرائص دانوس ويلاسجوس ! وهُرعت الجماهير إلى هيكل الآلهة تصلى وتبتهل ؛ وجمع الملك مجلس شوراه ليروْا فى ذلك الحدَثِ المدلهم رأيهم ، فأجمعوا على وجوب الدفاع عن المدينة ، وعدم تسليم ضيفهم الشيخ وعذاراه اللاجئات مهما كلفهم الذود عنهم من جهد ، ومهما طال حصار المصريين :

— « أفهذا رأيكم إذن ؟ »

— « أجل أيها الملك ! ولا رأى لنا غيره ! إن شرف آرجوس وكرامة الأرجيف معلقان بما نصنعه من أجل هؤلاء

---

(١) ليس هذا عنوان الدرامتين ولا عنوان إحداها ، ولكنا آثرناه لأن أحدا لا يجزم بصحة اسميهما ، ومؤرخو الأدب اليونانى على أن اسم الدرامة الثانية هو (مصلحات فراش النوم) أو الايجبتيون — وهى لا تعنى المصريين — والثالثة (الدانايدين)

العذارى ! لِنَمُتْنَ جميعاً دونهن ، ولا يقولن أحد فى هيلاس إننا منعناهن أولاً ، ثم أسلمناهن أخيراً ! »

— « إذن لتكن حرب ! ولندفع عن شرف آرجوليس ! »

— ٣ —

وكانت الحرب الزبون التى شابت من هولها نواصى الأراجيف ، والتى أوقفتهم هيجاؤها حيارى فى أبراجهم كاظمين !

ثم ... سقطت آرجوس !

وجاست خلالها شياطين فرعون ! وانطلق أبناء إيجبتوس فى عرصاتها تحف بهم أعلام النصر ، وترف فوق هاماتهم أكاليل المجد ، حتى كانوا فى هيكل المدينة الخالدة ، حيث تماثيل السادة النجب من آلهة الأولمب ... فـ ... صلوا لآلهة النيل ، وشكروا لرع ... وأثنوا على أمون ، وعقروا القرابين لأزوريس ! !

ويمموا شطر الحصن المنيف فوق رُبى آرجوس فاقتحموه على دانوس وبنات دانوس ؛ وكان أبوهن قد نصح لهن بالانصياع لما أراد القضاء : « ... فلا راد لما قُدِّر ، ولا دافع لما وقع فى صحيفة المرء ... ولنبحر يا بناتى البائسات إلى مصر ، وليكن لنا ثمة شأن غير هذا الشأن ، ولتتم المأساة ، ولتندلع النيران ، وليكن أبناء أخى أول ما تأكل من حطب ، وخير ما يلقى فيها من حصب ، وتغتذى به من أشلاء ! ! »

وظهر القادة الخمسون ، أبناء إيجبتوس ، ومن حولهم الجند شاكى السلاح ، فأسقط فى يد دانوس وأرتج عليه . واسودت الدنيا المشرقة فى عيون بناته ، وظلن متناثرات هنا وهناك فى ردهة الحصن ، ضافيةً عليهن جلاليبهن السود ، وأرديتهن الحزينة السادرة تزيدهن جمالاً على جمالهن ، وتجعل منهن ربرباً من المفاتن بدا فى هذا المرمر المترقرق فى أكفهن ووجوههن ، وأجيادهن وثديهن ، وفى هذه السيقان الناعمة التى كان يحسبها أن ترد عادية الجيش المغير ... وإن كانت الجن من ورائه ظهيراً ! !

— ٤ —

ذهل أبناء إيجبتوس ! وانقدح شرر الهوى فى قلوبهم ، وتدفق الدم العاشق فى عروقهم حاراً ... ثم انهمرت أرواحهم الوامقة من عيونهم دموعاً سخينة ... فسجد كل منهم عند قدمى واحدة من بنات عمه ... ولبثوا لحظة لا ينبسون ! ...

وحملق دانوس فى بناته وفى أبناء أخيه قليلاً ثم قال : « قِفْنَ لأبناء عمكن يا فتيات ! قفن للأبطال المذاويد أبناء إيجبتوس ! رباه ! لم نجم هـذا الشر بيننا ؟ ! لقد كنت أحب أخى ، وكان أخى يحبنى ، فأى شيطان أغرى هذه العداوة بيننا ؟ ! قضاء !... أجل ... قضاء ... قضاء ... »

وما كاد أبناء أخيه يسمعون هـذه الكلمة المصنوعة من فم عمهم ، حتى تقاطروا اليه يقبلونه ويتمسحون به ويترضَّونه ... وظل هو يتلطف بهم ، ويهش لهم ، ويربت فوق أكتافهم ، وكأن شيئاً من الأحقاد التى أكلت الأفئدة ، وأراقت الدماء لم يكن ! ...

— ٥ —

وفُزِّع عن قلوب العذارى ، ونهضن فتلقين أبناء عمهن بالبشاشة والبشر ، ثم تلطفت كبراهن فشفعت لبيلاسجوس الملك الكريم المأسور فأطلق سراحه ورد عليه عرشه وألبس تاجه ، وعقد مع الأرجيف صلح نبيل دل على جود المصريين وسماحهم

وأقلع الأسطول ، وهمت الفلك واحتواها الماء ، وانتثر فى أذيالها وشى رجراج من الثبج ، وغابت آرجوس عن الأنظار قليلاً قليلا ، حتى إذا طوى الأفق آخر شاهق من أبراجها ، أوى الأبناء الخمسون إلى البنات الخمسين يباسطونهن ويسامرونهن ويسرون عنهن آثار ما نزغ الشيطان بينهم وبينهن

وأقبل الليل وانجاب ، وبزغت ذكاء وتوارت بالحجاب ... وكرت أيام ... ثم بدا الشاطىء المصرى ، وهبت نسمات الوطن وتبسمت الشمس فوق الأرض البنفسجية تحيى أبناءها الغزاة المنتصرين ، وأطل من قرصها الكبير ، رَعْ الكبير ، يبارك أبطاله ويغدق عليهم نفحاته . وخرج الشعب العظيم يهتف للجيش الظافر ، ويردد هذا النداء المحبب القديم : « المجد لمصر ! »

— ٦ —

وأقبل إيجبتوس على دانوس يلاومه ، ثم غفر له : « هذه النزغة التى أشمتت بنا الأعداء ، وأغضبت علينا أرباب السماء ، وسممت ما بيننا من محبة وصفاء ... » واتفقا على العرس ... وذهب كل يعد له عدته !

وخلا دانوس إلى شيطانه فقال إنى معك ! !

ثم جمع إليه بناته فخطبهن خطبة طويلة نضحها بالدمع وصهرها بنار الفؤاد ، وأودعها أحزانه وأشجانه . وذكرهن

بشرائع السماء ، ونواهى الآلهة ، والزنى البغيض الذى يستتر فى هذا الزواج القهرى ، لا عن نحلة ، ولا عن رضى ولا سلطان مبين ! ...

وذكر لهن أمهن المتوفاة وما كان بينها وبين زوجة عمهن من إحن وبغضاء ، فحرك فيهن هذا الماضى الأسود بجميع سخائمه ، وأثار فى قلوبهن الرطبة أشجانهن القدامى ... حتى إذا آنس فيهن الطاعة له والائتمار بأمره . أخرج لكل منهن سكيناً مسنونة مرهفة الحدين ، تقطر المنايا من أشفارها فيردها غمدها الذهبى المرصع بأغلى الجواهر واليواقيت

— « فاذا حان الحين يافتيات ، ونامت أعين الرقباء فاذكرن شقاءكن الذى لا شقاء مثله ، واذكرن كيف قضت أمكن بغصة العداوة بينها وبين زوجة عمكن ، ثم اذكرن أباكم هذا الشيخ الفانى المتهالك كيف ذل ، وكيف وضع أنفه الأشم فى الرغام ... واذكرن أخيراً أنكن تحمين شرائع السماء من هذا الاعتداء ... فالآلهة معكن ، وستضرب بأيمانكن ، وستغمد هذه الخناجر فى أحشاء أعدائها بوساطتكن ... بورك فيكن وكانت السماء فى عونكن ! »

— ٧ —

وأخذت ممفيس زُخرفها وازّينت ، وتبرجت عمائرها الفرعونية فى حُلل من النّور والنُّوار وأفواف الزهر ، وضفائر الورد والرياحين ؛ وانطلق كهنتها يرسلون فى جميع الأرجاء ألسُنَ الند ، وفَغمة العنبر ، وشذى الكافور والصندل ، من مجامرهم الفضية المقدسة ، واجتمعت أسراب الحسان فى ساحاتها وباحاتها بسيقانهن المصرية الفرعونية يتلاعبْن ويتطرن ، ويتغنيْن ويتناشدْن ، ويهزأن بعرائس الماء التى خالها قريحة هيلاس ؛ وسار ربهن يخطر فى كل حنية ، ويميس فى كل ميدان ، وينساب فى كل فردوس ، حتى كُن عند قصر الملك ، منزل العز ومناط المجد ، ونحر مصر وقلبها الخفاق ، فرقصن رقصات ما كان أشبهها بنبضاته ، وتغنين الأغانى كأنها تخرج من فمه ، وتنبعث من جوانحه وتجلجل موسيقاها عن حناياه ... ثم شارك الشعب فى الأفراح الملكية ، فعج النيل المقدس المعبود بالطوّافات والحراقات ، وهرعت عند حفافيه أمة بأسرها تفرح كما يفرح الملك ، وتسعد كما يسعد التاج ، وتنتشى بنشوة العرسين

وأقبل الليل ، وأسفر خونسو (١)

ورقصت ممفيس فى لجة من خمر ، ورفرف حوريس (٢) فوق المسلات الشاخصة فى الميادين ، ولم يعلم أحد أنه كان يرى غير ما ينظر الناس ، وأن عينه كانت تذرع الوادى الوادع السعيد وتكاد تضج مما أجن هذا الليل الرهيب ... لا ... بل كان الناس ينهلون أفاويق الحبور فى صحراء ممفيس ... فى ليبيا العجيبة ... ليبيا التى تصفر فيها الرياح ، وتتكلم فوق كثبانها ألسن الألغاز والأسرار ! ! ...

— ٨ —

وغرق القصر الملكى فى أثير الموسيقى ، وفى فيض من النور الذى يشبه الفجر الكاذب ؛ ثم أخذت الركبان تنصرف والولدان تتفرق إلى مخادع اللهو ، وأخذ الكرى يعقد أجفان ممفيس الصاخبة ، التى كانت منذ هنيهة تعج بالألوف ، وتضج بالجماهير

وعادت آنة الليل ... رهيبة كشأنها منذ الأزل ...

وافتر خونسو مرة أخرى عن ابتسامة هى إلى العبوسة أدنى ، وإلى السخرية أقرب !! يا لرهبة الأقضية ! ويا لصرامة المقادير !

لقد أوى أبناء إيجبتوس كل إلى مخدعه ، بعد إسراف طويل ، ولذات لم يكن يخطر على بال أحد أنها تنتهى ، وبعد قصف أيما قصف ، وخلاعات ليست كمثلها خلاعات ... فما كادت رؤوسهم تمس ديباج الطنافس حتى غطوا فى سبات عميق ، وحتى انطلقت أبالسة الشر من أغماد خناجر دانوس ، التى بدت أظمأ ما تكون إلى الدماء الحارة الشابة ، تجرى فى عروق أبناء إيجبتوس

— ٩ —

ولقد كان أبوهن قد اتفق معهن على هذه الغدرة الصفراء ، وجعل لكل منهن علامة حين تأفد ساعة النفاذ ، أن تطفىء السُّرُجَ إلا واحداً تدعه مطلاً من إحدى الكُوى التى تواجه قاعته ، إذ كان فى هذه الليلة الليلاء ضيفاً على أخيه ، وشريكه فى مخدعه ، ومنتوياً هو الآخر إنفاذ الغدرة الوحشية فى شقيقه ، ليخلوَ له وجه مصر ! ...

واضحكى أيتها الأقدار !! ...

(١) إله القمر عند المصريين القدماء

(٢) ابن آزوريس وكان المصريون يحبونه حباً جماً وكانوا يرمزون له بالبازى الأشهب

— ١٠ —

وأخذت السُّرُج تومض ثم تنطفىء ، وأخذ دانوس يلحظ الكُوى ويعد : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... خمسة ... » حتى عد تسعة وأربعين ... ووقف العد ... وأبطأ الحساب ، وتلكأ الجلاد ! ...

— « ماذا ؟ لقد ذبح الجميع أزواجهن إلا واحدة ! ... ماالذى منعها ؟ لعله لم ينم الخبيث ... ! ويلاه ! انطفئى أيتها السرج ... ولتنطفئ حياته فى إثركن ! ... »

وذكر هو أنه لم ينفذ غدرته ، فهب الى سرير أخيه ، وأغمد خنجره فى صدره ! ... وغادر إيجبتوس يتشحط فى دمه ... وراح يحلم بالتاج والعرش والصولجان ! . .

حلم قصير جميل ... ولكنه نظر الى الكوة الخمسين فوجد أضواءها تتألق ... ورأى إلى نورها يكاد يضيء ممفيس كلها ... فكاد حنقه يقضى عليه ...

— « هلمى يا غيبة ! البدار الى دمه البدار ! »

ولكن السرج تتألق وتتألق ... ولا تنطفئ منها شعلة واحدة !

— ١١ —

وقفت الفتاة الجميلة تلقاء الفتى الجميل تقبله ، بعد أن كادت تقتله ... !

أجل ... ! وقفت هيبر منسترا(١) تلقاء ابن عمها لنسيوس(٢) تعبده ، وقد شغفها الشاب الجميل النائم حباً ...

— « يا لأهدابه المراشة ، ويا لجبينه المشرق ، ويا لمنكبيه الجبارين ، ويا لوجهه البرىء ! أأطيع أبى ... هذا الشيخ القاسى المتحجر ... الذى لا قلب له ... الذى فرغت مآربه من الشباب ومن الحياة جميعاً ... وأسطو بخنجرى على هذا الشباب الذى أخلد إلى ... ونام ملء عينيه بين يدى ... وحملنى أمانته كلها ... لا وأرباب الأولمب ! لا يكون هذا أبداً ! ... إن قبلة واحدة على جبينه المتبلج خير من جنة أبى ، ومن الدنيا والآخرة جميعاً ... نم يا لنسيوس ! نم يا حبيبى ! إنى سأقف عند سريرك طول الليل أحرسك ، وسأغمد خنجرى فى صدر من تحدثه نفسه باغتيالك ولو كان أبى ! ...

(١) Hypermnestra (٢) Lynceus

— ١٢ —

ولبث دانوس يحرق الأرّم ويلحظ السرج ... ولكنها باقية كما هى ... لا تنطفىء ...

وانبلج الفجر ... ثم تنفس الصبح ... وأشرقت ذكاء ... وهب لنسيوس من نومه فما راعه إلا فتاته الجميلة واقفة إلى جانبه ضعيفة واهية ... تبكى ... وبيدها السكين المشحوذ يتلمظ ... ويتلمظ ... !

— « ماذا ؟ هيبر منسترا ؟! مابك واقفة هكذا ياحبيبتى ؟! »

— « لا شىء ... أنا أحرسك ... فقط أحرسك ! ... »

— « تحرسيننى ؟ ... ياللهول ! ومم يا ابنة العم ؟ ... »

— « من ... لنسيوس !! من أبى يا أعز الناس علىّ ! ... »

— « ماذا ؟ تحرسيننى من أبيك ؟ من عمى ؟ ... »

— « أجل ... أحرسك من الغادر الذى قتل إخوتك ! ... إنهض يا لنسيوس ! خذ عليه طريقه ... أحسبه قد قتل أباك أيضاً ... البدار البدار ! ... ... ويلاه ... وى ... »

وسقطت الفتاة لا تعى ...

— ١٣ —

وانطلق لنسيوس كالمجنون فى غرفات القصر المشيد ... ونفذ إلى مخادع إخوته ... فلم ترد عليه جثثهم ... صرعى فوق ديباج العرس ... مضرجة بدم الشباب الحار ... البارد كزمهرير الموت ! ...

وصعد الدم إلى رأسه ، فهرول إلى غرفة أبيه ؛ فما راعه إلا أن رآه قد لقى حتفه كما لقى إخوته حتوفهم ... وما راعه إلا أن رأى دانوس الجبار يحملق فى الكوة ... التى ما فتئت أضواؤها تنبعث منها ، برغم الفيض الذى ترسله الشمس ، مركب رع ... فى العالمين ...

وانقض عليه وذبحه

وجلس فوق أريكة يبكى ...

وهكذا قتل دانوس أحدُ أزواج بناته ، وصدقت الرؤيا ، لأن الآلهة لا تكذب ! !

— ١٤ —

واضطرب الأولمب(١) من هول الفاجعة ، واجتمع الأرباب

(١) لا ندرى لم لم يترك إسخيلوس عقوبة بنات دانوس لآلهة النيل ؟ ألأنهن لا يؤمن إلا بآلهة الأولمب ؟

البريد الأدبي

في ذروة جبل إيدا ، وقر رأيهم على أن يذهب هرمز فيأتى ببنات دانوس ، إلا زوج لنسيوس ، ثم يذهب بهن إلى السفل ... الى هيدز ... إلى أعماق الجحيم ... حيث يكلفن بملء جرار مثقبة من نهر شيرون ، لا تمسك المهل ... إلا كما تمسك الماء الغرابيل ... فاذا جد بهن السير ، ونال منهن النصب ، وجلسن على عدوة النهر يستجمعن ... أمطرتهن السماء ناراً ... فهرولن إلى النهر ليأخذن فى ملء الجرار ... ولن تمتلىء الجرار ولو صب فيها أشيرون كله ...

دريني خشبة

العبرات الحرار

رجا الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو المجمع اللغوى الملكى بالقاهرة من قراء الرسالة الغراء فى (العدد ١٤٦) الرجوع إلى نسخة شرح ديوان الخنساء المكتوبة سنة ٦٢٠ هـ المحفوظة فى دار الكتب المصرية ، لعلها تكون أوفى من نسخة مكتبته الخاصة المكتوبة سنة ١١٤٥ هـ لأن نسخته لم تذكر قصيدة « العبرات الحرار » وربما تكون ساقطة من نسخته من الشرح المذكور . ثم رجا الرجوع إلى نسخة الديوان المكتوبة بقلم العلامة اللغوى الكبير الشنقيطى التركزى وذلك للاستيثاق من صحة رواية البيت :

من كان يوماً باكياً سيداً فليبكه بالعبرات الحرار

لأنه يحتمل احتمالاً قوياً أن يد التحريف عملت فى البيت عملها فغيرت « الجوار » إلى « الحرار » . وإجابة لرجاء شيخنا المغربى رجعت إلى نسخة الشرح التى فى دار الكتب المصرية (« ٥٧٠ » آداب اللغة العربية) فوجدتها لا تشتمل على قصيدة « ياعين جودى بالدموع الغزار » التى منها بيت « العبرات الحرار » والظاهر أن نسخة دار الكتب من هذا الشرح هى أصل نسخة الأستاذ المغربى وأن قصيدة « العبرات الحرار » ليست فى رواية الشرح

ورجعت إلى نسخة الشنقيطي من الديوان (« ٤٠ ش » آدب اللغة العربية) وهى — بحق — نسخة نفيسة مكتوبة بقلم العلامة التركزى بالخط المغربى الدقيق مع ضبط أكثر قوافيها والكلمات الغريبة منها بالقلم مع تقييدات على الحاشية لأكثر الأبيات فوجدت البيت هكذا :

من كان يوماً باكياً سيداً فليبكه بالعَبَرات الِحرار [1]

بضبط الحاء من الحرار مكسورة مما يقطع بأن الرواية « الحرار » لا « الجوار » ونسخة الديوان هذه كتبها الشنقيطى فى مكة سنة ١٢٨٨ وفى دار الكتب المصرية نسخة ثانية من ديوان الخنساء (« ٥٣٦ » آداب اللغة العربية) كتبت سنة ١٢٨٩ هـ بمكة أيضاً بقلم أحمد بن محمد الخضراوى بخط عادى واضح ورد فيها عجز البيت «العبرات الِحرار» بكسر الحاء أيضاً . ويغلب على الظن أن نسخة الخضراوى منقولة عن نسخة الشنقيطى السابقة وإن لم يصرح ناسخها بذلك فانه اقتصر على القول بأنه كتب نسخته من الديوان عن نسخة بالخط المغربى الردىء الذى يصعب على المشارقة قراءته

والذى يؤيد هذا الظن أن الشنقيطي كتب نسخته بمكة سنة ١٢٨٨ هـ والخضراوى كتب بعده بسنة بمكة أيضاً وأن نسخة الخضراوى تشتمل على جميع التقييدات التى على نسخة الشنقيطى بنصها كما يلاحظ الاتفاق التام بين النسختين فى ضبط بعض الكلمات فما كان مضبوطاً من هذه فلابد وأن يكون مضبوطاً فى تلك بنفس الشكل

وأظن أن ما تقدم كاف فى الاستيثاق من صحة رواية «العبرات الحرار » وأستاذنا المغربى عليم بأن عدم ذكر الحرار جمعاً لحارة فى المعاجم التى بين أيدينا لا يدل على عدم وروده

برهان الدين محمد الداغستانى

(١) فى الوجه الثانى من الورقة ٤٣ من الديوان

المعجم الوسيط

تأليف الهيئة الرسمية لوضعه

وقع حضرة صاحب السعادة محمد علي علوبه باشا وزير المعارف العمومية قراراً وزارياً بتأليف الهيئة التي يعهد إليها بوضع معجم في اللغة العربية، وهي تتألف من لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف والثانية المجمع الملكي للغة العربية

وهذا نص القرار:

بعد الاطلاع على القرار الذي أصدره المجمع الملكي للغة العربية بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ وبناء على الاتفاق الذي تم مع معالي رئيس المجمع على اختيار لجنتين تمثل إحداهما وزارة المعارف وتكون الأخرى ممن ندبهم المجمع لتعمل اللجنتان معاً على وضع (المعجم الوسيط) في اللغة العربية

قرر: —

المادة الأولى: تؤلف الهيئة التي يعهد اليها بوضع معجم في اللغة العربية يسمى (المعجم الوسيط) على الوجه الآتي:

أولاً — أعضاء اختارتهم وزارة المعارف العمومية:

الدكتور طه حسين بك — الأستاذ بكلية الآداب

الأستاذ خليل مطران

الدكتور أحمد عيسى بك

الدكتور محمد والى — الأستاذ بكلية العلوم

ثانياً — أعضاء ندبهم المجمع الملكي للغة العربية

أحمد العوامري بك

الأستاذ أحمد علي الاسكندري

علي الجارم بك

المادة الثانية — يراعى في وضع هذا المعجم ما يأتي: —

١ — أن يكون ترتيبه على خير نمط بحيث لا يقل نظامه عن أحدث المعجمات الأجنبية وبحيث تسهل فيه المراجعة على الطلاب الذين لم يعتادوا المراجعة في المعجمات القديمة. ويتبع في ترتيب مواده طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة

٢ — وأن يتبع في شرح ألفاظه أسلوب واضح جلي يلائم العقلية الحديثة ويؤدي إلى تصوير المعنى على أدق وضع وأسهله

٣ — وأن تحقق فيه أسماء النباتات والحيوانات وغيرها بقدر الامكان مع الاستعانة بالخبراء في هذه العلوم عند ما تدعو الحاجة

٤ — وأن تصور فيه الأشياء أو أجزاؤها مما يحتاج شرحه إلى تصوير ولا يكفي الوصف البياني في إيضاح حقيقته

٥ — وأن يؤتى فيه بأمثلة غريبة من أفصح الكلام وأبلغه من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والتراكيب العربية البليغة والشعر العربي. وذلك عند كل مناسبة لتوضيح استعمال اللفظ مع الاشارة بقدر الامكان إلى عصور ما استشهد به

٦ — وأن يفصل فيه بقدر الامكان بين المعاني الحقيقية والمجازية في المادة مع تقديم الحقيقة على المجاز

٧ — وأن يشار فيه أحياناً إلى التقلبات التاريخية التي انتابت بعض الكلمات فغيرت من معانيها بتغيير العصور

٨ — وأن يختار من الكلمات التي أقرها المجمع في الشؤون العامة والعلمية ما يتفق أعضاء الهيئة على ملاءمته لما يتسع له هذا المعجم

٩ — وأن تكون مواد المعجم من الألفاظ العربية الصحيحة أو مما عربته العرب

١٠ — وأن يشتمل على ملحق بالمشهور من أعلام الأشخاص والأماكن مع مراعاة ما أقره المجمع في هذا الشأن

١١ — وأن يشتمل على اصطلاحات العلوم والفنون والآداب عند العرب

١٢ — وأن يترك فيه الغريب المهجور إذا أغنى عنه مرادفه الصحيح

١٣ — وأن يضبط ضبطاً دقيقاً لا محل فيه للبس

المادة الثالثة — تبدأ هذه الهيئة عملها اعتباراً من أول مايو سنة ١٩٣٦ على أن تتمه في ثلاث سنوات على الأكثر ويمنح أعضاؤها مكافأة نظير قيامهم بهذه المهمة

ترجمة معاني القرآن

قرر مجلس الوزراء بالموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم:

ونص قراره:

بعد الاطلاع على كتاب فضيلة شيخ الأزهر وكتاب سعادة وزير المعارف العمومية بشأن ترجمة معاني القرآن الكريم

ومع تقدير مجلس الوزراء لمشقة هذا العمل وصعوبته ومنعاً لاضرار التراجم المنتشرة الآن رأى بجلسته المنعقدة في ١٦ ابريل

سنة ١٩٣٦ الموافقة على ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية تقوم بها مشيخة الجامع الأزهر بمساعدة وزارة المعارف العمومية وذلك وفقاً لفتوى جماعة كبار العلماء وأساتذة كلية الشريعة

الشعر القبطي القديم

ألقى الدكتور هرمن يونكر مدير معهد الآثار بالجامعة المصرية ومدير المعهد الألماني للآثار المصرية محاضرة في «الشعر القبطي القديم» هذه خلاصتها:

يرجع الشعر القبطي الى القرن التاسع بعد الميلاد، وهو شعر شعبي وطني لا أثر له في الكتب الثمينة والدواوين الأدبية، بل يوجد في كراسات متفرقة من الورق، وهو يمثل روح الشعب وعقليته، وتظهر فيه جلياً الروابط التي تربطه بشعر العصور الفرعونية كما تظهر علاقته بألحان الشعب في العصر الحاضر

ويؤلف الشعر القبطي من قصص للعامة مثل أغاني الفلاحين وهم يؤدون أعمالهم، وأناشيد تتلى في أيام الأعياد. وهو على مثال الشعر الفرعوني لم يتقيد بقاعدة القوافي؛ وأبياته لم تراع فيها قواعد الوزن المتبعة في الشعر العربي أو اللاتيني فهو غناء نسق روعي في كل بيت منه انسجام خاص في الكلمات والتوقيع يوصل إلى نغمة موسيقية، وهذه الطريقة نفسها المتبعة في شعر مصر القديمة

وكانت الأشعار القبطية تلقى بطريقة موسيقية على ألحان متعددة لكل لحن اسم، وكان هذا الاسم مكوناً من الكلمات الافتتاحية لأغنية مشهورة (مثلا: الباب، الحديقة، سمعت السر المقدس ... انظر إلى فوق ...) كما تلقى اليوم أغاني العامة على وزن موال كذا وكذا

وكانت الأغاني في أغلب الأحوال مؤلفة من دورين في كل دور أربعة أبيات، وكانت بين الدورين رابطة معنوية، فكان الدور الثاني مثلاً يحوى ردا على سؤال ورد في الدور الأول، وتوجد أيضاً قصائد تمثيلية تشتمل على مقدمة ثم نشيد للمغني، وبعد ذلك دور غنائي غير موزون، يليه رد الجمهور، وكانت تكرر هذه السلسلة مرة أو أكثر على حسب موضوع القصيدة

وفي أحوال أخرى توجد قصائد تشبه كل الشبه الروايات التمثيلية الغنائية فيلقى كل ممثل في دوره دورا غنائياً كما يرى في رواية «اركليتيس ووالدته»

معاهدة ثقافية

عقدت أخيراً بين فرنسا والنمسا معاهدة ثقافية لتقوية الروابط والصلات الثقافية والفنية والاجتماعية بين الأمتين، خلاصتها أن تتبادل الحكومتان الآثار العلمية والفنية، وأن تتبادلا إقامة المعارض الفنية وتنظيم الحفلات الموسيقية والتمثيلية كل في بلد الآخر؛ وقد نص أيضاً على أن المعهد الفرنسي الفني الذي أنشيء منذ حين في مدينة فينا يجب توسعته وتنظيمه، بينما تنشيء النمسا معهداً نمسوياً مماثلاً في باريس؛ كذلك نص على أن تتبادل الحكومتان انتداب العلماء والأساتذة كل في النواحي التي تحتاج فيها إلى معاونة علمية من الطرف الآخر، وأن تنظم كلتاهما كل في بلد الآخر رحلات علمية ورياضية لطلبة المدارس الثانوية، هذا إلى تفاصيل أخرى ترمي كلها إلى تقوية الصلات العلمية والاجتماعية بين البلدين

هذا ومن المعروف أن النمسا قد عقدت مثل هذه المعاهدة الثقافية من قبل مع المجر وإيطاليا؛ وهي تبغي من وراء ذلك الى كسب المعاونة الخارجية للاحتفاظ بمستوى ثقافتها؛ وهي تبذل في ذلك السبيل جهوداً عظيمة داخلية وخارجية

وفاة علامة كبير

من أنباء السويد أن الطبيب والعلامة المجري الشهير الدكتور روبرت باراني قد توفي في أوبسالا في الستين من عمره؛ وكان مولده في المجر سنة ١٨٧٥؛ ودرس الطب في فينا، ثم زاول مهنته فيها أعواماً طويلة، واشتهر بالأخص بالتخصص في أمراض الأذن وجراحتها، وفي أثناء الحرب الكبرى انتظم في سلك الجيش، وحارب في الميدان الشرقي، ووقع في أسر الروس، وأمضى في الأسر حيناً في روسيا. ولكن حكومة السويد تدخلت في أمره تقديراً منها لكفاياته العلمية، وسعت لدى روسيا حتى أطلق سراحه، وانتدبته الحكومة السويدية للتدريس في جامعة أوبسالا، وفي أثناء الحرب أيضاً منح الدكتور باراني جائزة نوبل للطب، وأضحى علم الأعلام في طب الأذن؛ وله في هذا الميدان بحوث علمية شهيرة؛ وقد أنفق حياته منذ إطلاقه من الأسر كلها في السويد حتى توفي فيها

الكتب

نابليون : المائة يوم

للسنيور موسوليني والسنيور فورزانو

نقلها إلى العربية الأديب يوسف تادرس

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

ما زال عظماء الرجال موضع تفكير الانسانية وبحثها ، ومهما كتب الكتاب في عظيم لم يستوعبوا أسراره بل تبقى في نواح منه مواضع فسيحة للأجيال المقبلة وبحثها ، ولقد كان نابليون أعظم من ظهر في الانسانية في تلك القرون الأخيرة من رجال الحرب والسياسة ، ولئن نفس عليه الأدباء عظمته وأبوا عليه الزعامة فيهم ، فلن يستطيعوا أن ينكروا أنه قد كان أديباً ، وأنه كان شاعراً ، لا بأنه كتب الكتب وألف القصائد ، بل لأنه كان له فن الكاتب وخيال الشاعر . ولقد حاول أن يجول في ميادين الأدب الخالص كما حاول من قبله قيصر ، فلم تترك له مشاغل المعمعة ومشاكل السياسة فراغاً لذلك

وقلما نجد لغة من اللغات الحية ليس فيها ذكر لذلك الرجل العظيم ، ولم تكن القصة مقصرة في ذلك عن التاريخ ، فان كتاب القصص وجدوا في حياته مواطن كثيرة يخرجون منها إلى خيال رائع أو تحليل بديع . فقد كان نابليون على شهرته وتطلع العيون اليه محاطاً بجو من الغموض يجعل في حياته مسارح لقناص الرواية وصيادي الحكاية

وقد اختلفت نظرات الناس في نابليون اختلافاً لا ينم عن شيء غيمته عن عظمته واتساع شخصيته . ولكن لم يكن في مقدور البشرية أن يدرك شخص كنه شخص آخر . فما زال تقدير الناس لنابليون تقديراً يقرب بهم الى الحقيقة ولا يلمسها . فكل من كتب فيه قارب ولم يصب ، ودنا ولم يصل . غير أن بعض الواصفين أقدر من بعض على قصد المرمى وبلوغ المدى ، وذلك أن يكون الواصف فيه شيء من طباع الرجل وخلقه وآرائه . فاذا تحقق ذلك كان الوصف أدنى ما يكون من الحقيقة

وقد كتب هذه القصة التي بين يدينا الآن رجل عظيم تدنيه من نابليون علاقات كثيرة ومشابهات متعددة وذلك هو موسوليني ، فكلاهما إيطالي ، وكلاهما رجل حرب ، وكلاهما رجل سياسة ، وكلاهما فيه هذه المغناطيسية العجيبة التي تخلق الأصدقاء المخلصين والأعداء المتحمسين ، وكلاهما انحنت له هامات كبيرة وعقول حصيفة . فاذا كتب موسوليني قصة عن نابليون ، كان أليق الناس أن يصف نبضات قلبه وخلجات صدره . وها هي هذه القصة تدل على ذلك أكبر الدلالة

يظهر نابليون في هذه القصة عقب أسره الأول وارساله الى جزيرة « البا » ويظهر فيها في فترة المائة يوم إلى أسره الأخير وإرساله إلى « سنت هيلانة » ولعمري لهي أيام القصة من حياة نابليون . هي الأيام التي تتجلى فيها مأساة بشرية رائعة :

دسائس ثائرة حوله ، ومجهودات جبارة تحاول صد تيار أتي فتصرع دونه ، وأصدقاء يفر بعضهم ويثبت أقلهم ، ثم أنانية لا تنظر إلا إلى النفس ونفعها أو خلاصها ، والرجل العظيم في وسط ذلك كله تنعكس فيه كل تلك العيوب وتشع منه كل تلك البواعث

صور موسوليني نظام الحكم وأسسه ، ونطق عن لسان نابليون في تصوير عيوب الديمقراطية واحتقارها فقال :

نابليون — « . . . . . عند ما أبرح باريس إلى الميدان ، لا أريد أن يهاجمني البروسيون والانجليز في وجهي بينما يطعنني مجلس النواب الفرنسي من خلف »

فوشيه — « مولاي إن المجلس هو الأمة »

نابليون — « (ترتفع نبرات صوته) لا ... ليس هو الأمة (يبحث في مكتبه كالمحموم) إن صانع البنادق في مارسيليا الذي وهب لنا مائة بندقية ، وصانع السروج الفقير في بولون سيرمار الذي قدم ثمانين سرجاً للفرسان ، وعمال فيسول

وفلاحى أرجون الذين حفروا الخنادق وأبوا أن يتناولوا أجرا ، وجنود الفرقة التاسعة والسبعين الذين رفضوا الرشوة لأنهم عقدوا العزم على أن يتبعونى ... وكل امرأة كنت أنتظر منها رسالة استجداء فاذا بى أتسلم بدلاً من ذلك رسالة تقدم فيها ما أدخرته من مال . (يريهم لفة مربوطة بشريط وسام جوقة الشرف) هذه هى الأمة يا مسيو فوشيه ، وليس الخمسمائة من المحامين الذين يستطيع أربعة من رجال حرسى أن يفرقوهم بمؤخرة بنادقهم »

وصور موسولينى شخص نابليون فلم يترك دقيقة لم يصورها : رجل ينام فى أى وقت شاء ، ويدرك فى دقيقة ما يفوت الافهام فى ساعات . فاذا عزم فانما عزيمة البرق ، وذلك حتى بعد أن فل حده وترهل جسده وضعفت عزيمته بعض الضعف . ثم صوره والداً تغلبه العاطفة وزوجاً يذكر حبه الأول ويحنق على زوجة خائنة حنقاً مكتوماً وإنساناً يتعذب ولكنه يحتمل العذاب والاحقاد احتمال الجبار

ثم صور موسولينى الموقعة الأخيرة ، فكان فى وصفه القائد الواقف على نشز من الأرض يرقب جنوده من منظاره ، ويحرك الفيالق عن علم ودراية ، حتى لكأننا ننظر من ثنايا وصفه ميدان « كاتربرا » و « واترلو » . ونسمع أصوات القواد والساسة فى مفاوضاتهم بعد النصر الأخير

فالقصة مثل رائع من أمثلة التأليف القصصى التاريخى ، يكاد الانسان لا يبصر فيها موضع القصص لصدقها التاريخى ، ويكاد لا يلمح التاريخ لصدق تصويرها القصصى

وقد أحسن حضرة الأديب يوسف أفندى تادرس الناقد المسرحى لجريدة السياسة الغراء ، فى إخراج هذه القصة الى اللغة العربية التى ما كان لها أن تفقد قصة موضوعها نابليون ومؤلفها موسولينى . وقد نقلها عن الترجمة الانجليزية للشاعر الانجليزى المعروف « جون درنكووتر »

وقد قرأت التعريب كما قرأت الترجمة الانجليزية التى عربها المعرب ، فاذا بى حيال قصة عربية سلسة حلوة الأسلوب سهلة اللفظ ، قد أبرز المعرب روحها إبرازاً لم يدع فيها موضعا لغموض مع الصحة والدقة

فعلينا أن نشكر لحضرة المعرب الأديب مجهوده العظيم الذى أضاف به كنزاً كهذا إلى اللغة العربية المجيدة

محمد فريد أبو حديد

مكتبة القراءة والثقافة الادبية

بقلم الدكتور أحمد فريد رفاعى

مدير ادارة المطبوعات

لا حاجة بنا أن نقدم إلى القراء الدكتور أحمد فريد رفاعى فهو ذو الشهرة الطائرة والصوت البعيد فى عالم الأدب ، وفى طليعة الجمهرة المستنيرة المثقفة فى مصر ، يجمع إلى نشاطه الوثاب عزيمة لا تفتر وهمة لا تكل ، وهو جد معنى بأن يظهر أبناء العربية على طريف البحوث وشائق التآليف فى مختلف مناحى الثقافة العربية ، فقد أصدر منذ سنوات قليلة مؤلفه الكبير « عصر المأمون » ونال ما يستحقه من الرضا والاقبال ، كما أصدر سلسلة « الشخصيات البارزة » ؛ وها هو ذا الآن لا يشغله منصبه الرسمى الكبير عن أن يتحف أبناء العربية بسلسلة جديدة فى أربعة أجزاء تشمل دراسة موضوعات مختلفة فى الثقافة العربية أصدرتها مطبعة المعارف فى حجم لطيف وهى « المقدمة ، والتعقيب ، والتذييل ، والتعليق » وهى تشمل بحوثاً مستفيضة فى نواح مختلفة تلذ حقاً وتنفع حقاً ، فمن حديث عن حاجة العربية الى التجديد ، الى كلام عن فن القراءة ، الى درس البرامج الدراسية العربية والأفرنجية ، الى مطلب عن القراءة ، الى حديث عن موقف المؤلف بين العربية والانكليزية ، الى فذلكات عن ابن الجوزى والبغدادى وياقوت الحموى والفارابى وابن سينا وقيس بن رفاعة والزجاج وابن مسكويه وعمر بن الخطاب وأبى موسى الأشعرى وأبى عبيدة الجراح ومعاذ بن جبل وأبى حيان والأشتر النخعى والبصرى والمهدى وطاهر بن الحسين وابن طيفور والصابى وابن زيدون والأسكافى وابن سعيد المغربى وابن صخر الهذلى ، الى غير ذلك من الأحاديث الشيقة والدراسات الممتعة

وقد صدره المؤلف الفاضل بمقدمة بليغة ، شرح فيها غرضه من تأليفه وهو حرصه على توجيه الشباب توجيهاً نافعاً إلى الطريق الأقوم . فعسى أن يكون اقبال القراء عليه مكافئاً لجهده ومحققاً لقصده

(س)